سيرة فرح أنطون وأبرز منجزاته[1]
(١٨٧٤– ١٩٢٢)

وُلِدَ فرح الياس أنطون سنة ١٨٧٤ في بَيْتٍ مُتَواضِعٍ يطلُّ على شاطئ البَحْر في مدينةِ طرابلس[2] قاعِدة لبنان الشمالِي، واسْتمرَّت حياته حتَّى نهايات الرُّبع الأوَّل من القَرْن العشرين، وعاش طفولتَه في كنفِ عائلةٍ أرثوذكسيَّة المذهب، ووالدٍ تاجر ميسور الحال، ورعاية والدة فاضلة[3].

[بعد اثني عشر يومًا من ولادته اقتبل المولود الجديد فرح سرّ العماد[4]]. وفي السادِسة من عُمْره أُرْسِل إلى مدرسةٍ ابتدائيَّةٍ، في بلدة الميناء، ليتلقَّن المبادئ الأولى للقِراءة والكِتابة حسب الطُّرُق المألوفة في تِلْك البيئة، وذلك العَصْر. وفي الثَّانية عشرة من عُمْرِه أُدْخِل مَدْرسة دَيْر كِفْتين الشَّهيرة في الكورة[5]، وهي إذ ذاك في إبَّان نَهْضتِها بَيْن المعاهد الوطنيَّة، بما حَباها اللّه من مُربِّين حذِقين، وإدارةٍ قديرة مُمَيَّزة غَيْر طائفيَّة، تَصْقُل شَخْصيَّةَ الطّالبِ بشعورِ الجُرْأةِ والتَّسامُحِ الدِّيني[6]، فكانت السبَّاقة في تَمْيِيز شَخْصيَّة فرح الفتى، والكَشْفِ عن مُيولِه الصَّحافيَّة: "فبرزَت مُنْذُ تِلْك الفترةِ في شَخْصيَّته ملامِحُ الصَّحافي، إذ أُسْنِدت إلَيْه رئاسةُ تَحْرير جريدة المِدْرسة،

١هذه السيرة مستقاة، بشكل أساسيّ وشبه حرفيّ، من المرجع التالي: فيكاني، بلانش أنطوان، **التيّار الوضعيّ وأثره في نتاج فرح أنطون**، أطروحة أُعدَّت لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانيّة في اللغة العربيّة وآدابها، إشراف د. يوسف فرحات، بيروت، الجامعة اللبنانيّة، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، الفرع الثاني، ١٩٩٦، ص ٦٤– ٦٦، ٧٢– ٧٦، ٨٢– ٩٢. وقد أضفنا إليها أو عدّلنا فيها بعض الأمور الطفيفة. وما عُدّل أو أُضيف تمّ وضعه بين معكوفين، هكذا: [ ]، وأحلنا في حاشية، بين معكوفين كذلك، إلى المرجع المعتَمَد. أمّا الحواشي الأخرى فقد أبقيناها كما وردت في الأطروحة.

٢ تكريمًا لذكرى هذا العبقريّ ، ووفاءً منها لعظمائها ومفكّريها، ميّزت مدينة طرابلس إحدى مدارسها في شارع الزاهريّة باسم "مدرسة فرح أنطون الرسميّة".

٣كان بيت فرح يقع في بلدة الميناء في مدينة طرابلس تجاه مستشفى الأميركان، ولكنّه أزيل لتقوم مكانه بناية فخمة. [ويروي محمّد لطفي جمعة أنّ فرحًا كان يحسب بيته ذاك قصرًا فخمًا، لكنّه عندما زاره عام ١٩١٩، لدى قدومه إلى البلاد من أجل أن يستطلع إمكانيّة إقامة تمثيليّات، عرف مبلغ تواضع ذاك البيت: خوري، هنري، **فرح أنطون وأدبه الاجتماعيّ**، رسالة لنيل الكفاءة في اللغة العربيّة وآدابها، إشراف د. جبّور عبد النور، بيروت، الجامعة اللبنانيّة، معهد المعلّمين العالي، ١٩٦٥، ص ١، حاشية رقم ٢. وعائلته مؤلَّفة من خمسة أفراد: صبيّان هما فرح وشقيقه مخائيل، وثلاث بنات هنّ: رمزا وميريانا وروزا، والأخيرة هي صغيرة العائلة].

٤ [خوري، هنري، **فرح أنطون وأدبه الاجتماعيّ**، مرجع سابق، ص ١. لكن يبدو أنّه تخلّى عن أرثوذكسيّته، واعتنق مذهبًا إنجيليًّا في شبابه، وبعد سفره إلى مصر. يُراجَع بهذا الشأن: الخوري، وليد كميل، **البُعد الاجتماعيّ المسيحيّ في فكر فرح أنطون**، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، إشراف د. جورج خيرالله، الفنار، الجامعة اللبنانيّة، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، الفرع الثاني، ١٩٧٩، ص ٧٧، حاشية*].

٥ يصفه أحد أساتذته ، جبر ضومط، بأنّه كان في تلك الفترة "فتى أسمر اللون، نحيف البنية، واسِع الجبين والعينين، مغرمًا بالمطالعة": ملحق مجّلة السيّدات والرِجال – عام ١٩٢٣، ص ١٠.

٦ مجلّة الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦–١٩٠٧، ص ٨٢. [وللمزيد من المعلومات حول الأثر الذي تركته عليه هذه المدرسة تُراجَع مقالته "تذكارات مصر والشام" المنشورة في مجلّة الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، لاسيّما الصفحات ٨١– ٨٣. وحول الأساتذة الذين كانوا يتولّون التدريس فيها، والموادّ التي يدرّسونها، وعدد الطّلبة، وبعض رفاق أنطون فيها، تُراجَع مقالته: "الشيخ إبراهيم الفتّال وتأثيره في مدرسة سوريّة" المنشورة في مجلّة الجامعة، السنة السادسة، ١٩٠٨، ص ٢– ٨].

فبَرْهن عمليًّا عن ذكاء حادّ، ونجح نجاحًا باهِرًا"[١]، ممَّا أثَّر حَتْمًا في رَسْمِ مَنْهجِه وتَوْجيهه نحو مِهْنةِ الصَّحافة، وعالَمِ الفكْرِ، فيما بَعْد. يقولُ عَنْه جبر ضومط، أحد أساتذته [في كِفْتِين ومدرّس الرياضيّات فيها]: "كان إذا دُعِي للخطابةِ في المِدْرسة، يَمْشي إلى المِنْبرِ بقدمٍ ثابتة ورأسٍ مَرْفوع، فيقِفُ وَقْفة المدلّ بنفسه، المعتاد تلك الوقفة، والعارِف ماذا يقول. وكان في لسانه حَبْسة، أو وقفة، أوَّل ما يّبْدأ الكلام. أمَّا بَعْد ما يَجري الحديث فينطلِق لسانُه، وينوِّرُ وَجْهه"[٢].

بَعْد تخرُّجِه، في السَّادسة عشرة، أرادَهُ والدُه تاجِرًا مِثْله. [والتجارة التي كان يتعاطاها الوالد هي تجارة الأخشاب. وكانت بلدة الميناء، في طرابلس، مركز تجارته. لكنّه كان مضّطرًّا للتنقُّل بين سوريا وفلسطين والأناضول في سبيل إنجاحها. فنزل فرح عند إرادة أبيه، وعمل في تجارة والده مدّة سنة][٣]. لكنّه أحسَّ، مُنْذ البدء، أنَّ هذا العَمل غريبٌ عن طَبْعِه، وأنّ فيه طاقةَ روحيَّةً لا يُمْكن أن تأتلِفَ والمادَّة، خاصّة أنَّه لم يَقْتنِع بما حصَّله من مَعْرفة حتَّى ذلك التَّاريخ[٤]، فلم يَسْتطِع الاسْتِمرار[٥]. فشعر أبوه بالصِّراع المسْتمرّ في نَفْسه، واستوضحه الأمر، فكان الرَّد التَّالي: " أوَدُّ أن أكون مدرِّسًا، أديبًا، صُحُفيًّا. إنَّ مِهْنة الثَّقافة والتَّثْقيف هي كُلُّ ما أصْبو إلَيْه يا أبي"[٦]. وهذا بُرْهانٌ ثابتٌ على أنَّ فرح أنطون كان مُدْرِكًا كُلَّ الإدْراك، مُنْذ حداثتِه، الهدف الذي كان يَسْعى إلَيْه، والذي أصبحَ، فيما بعد، "مِهْنته" في الحياة[٧].

التحقَ، بعد هذه المرْحلة، بمَدْرسة مار الياس لطائفةِ الرُّوم الأرثوذكس في ميناء طرابلس رئيسًا لها، فازدهرَت المدْرسة على يديه ازْدِهارًا بارِزًا خِلال بضع سنوات بالرَّغم من حداثةِ عَهْدِه بمِثْل هذه الشُّؤون[٨]. ثمَّ أسَّسَ ناديًا عِلْمِيًّا[٩]، وواصل دِراستَه اللُّغَة الفرَنسِيَّة: "وقد صرَفْتُ عُمْري في دَرْسِ الفرَنْسِيَّة، وقرأت فيها ما لا يَقْرأه غَيْري في مائة سنة "[١٠]. وشأنه شأن الكثيرين من مُفكِّري عَصْرِ النَّهْضةِ الغربيَّة والعربيّة تأثَّرَ فرح،كُلَّ التَّأثُّرِ، بجان جاك روسّو، الذي قرأهُ بشغَفٍ واهتِمامٍ وهو في عُمْرِ السَّادسة عشرَة تَقْريبًا، وبقِيَ مُواظبًا على قِراءتِه. كما كرَّس الوَقْتَ الطَّويلَ لقِراءةِ الأدب الغَرْبيّ واستيعابه[١١]، فحصَر اهْتِمامَه بكبارِ الكُتَّاب الغَرْبيّين، الثَّوْريين مِنهم بصورةٍ خاصَّة، والذين لم تَكُن أفْكارُهم تأتَلِفُ والأوضاعَ الثقافيَّةَ والدينيَّةَ في البلادِ في ذلِك الحين، أمثال أوغست كونت، وجول سيمون، وكارل ماركس، وليون تولستوي، وسِواهم من مُفكِّري الاشْتِراكيَّة والفَلْسفة الإلحاديَّة، الذين كانوا بالتَّأكيدِ من العُظماء في عَصْرِهم

---

١ كان فرح من عداد طلابها المتفوّقين، وحاز قصب الأوليّة في صفّه في العلوم الرياضيّة والطبيعيّة.

٢ ملحق مجلّة السيدات والرجال، السنة الرابعة، ص٩١– ٩٢.

٣ [خوري، هنري، **فرح أنطون وأدبه الاجتماعيّ**، مرجع سابق، ص ١، ٣].

٤ وإن كانت عائلة أنطون على شيء من اليسر، فإن ولدها فرح لم يدخل الجامعة للتخصّص، "بل تثقّف على نفسه، مدفوعًا إلى ذلك بحبّ الاستطلاع الذي استفاق لديه في المدرسة في وقت مبكر، فكان الكتاب لصيق كفّيه وملتقى عينيه".

٥ نقولا الحدّاد، مجلّة المقتطف، مجلّد ٦١، ص ٢٦١.

٦مجلّة السيّدات والرجال، نقولا باز، ١٩٢٣، ص ٧٦.

٧ ملحق مجلّة السيّدات والرجال، ١٩٢٣، ص ١٠.

٨ ملحق مجلّة السيّدات والرجال، ١٩٢٣، ص ١٠.

٩ جمعيّة روضة المعارف الطرابلسيّة: ملحق مجلّة السيّدات والرجال، عام ١٩٢٣، نقولا باز، ص ٧٥– ٧٦.

١٠ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦–١٩٠٧، ص ٨٣.

١١إنّ فرحًا كاتب متعدّد اللغات، يكتب ويقرأ بطلاقة: العربيّة والروسيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة واللاتينيّة، وهي اللغات التي كانت تُعلَّم في معظم المدارس في الشرق العثمانيّ. لكن تنقصه المنهجيّة الواضحة بالرغم من سعة اطّلاعه. ومعلوماته كثيرة ومهمّة، غير أنّ فيها الكثير من الثغرات، إذ إنّها عبارة عن مقتطفات من عدّة كتب، ومصادر مختلفة.

بفَضْلِ التَّأثيرِ الذي مارسَتْه كِتاباتُهم على التيَّاراتِ الأدبيَّة والفَلْسفيَّة في ذلِك العَصْر. وهو سيَسْعى، من خِلالِهم، إلى إظْهارِ الحقائق ونَزْعِ الأقْنِعة. لا يوجدُ عِنْد فرح تَقْليدٌ مُباشرٌ لِهؤلاء المفكِّرين الغَرْبيّين، بل كان يَسْتعمِلُ التيَّارات الفَلْسفيَّة المُخْتلِفة، والوضعيَّة بشكلٍ خاصّ، من أجلِ تَطْبيقِها على مَشْروعِه الإصلاحِيّ.

في الثَّامنة عشرة من عُمْرِه بدأ فرح بتَدْبيجِ المقالات السياسيَّة والاجْتِماعيَّة والأدبيَّة التي كان يُرْسِلها إلى مجلَّة "المُقْتطف". ومن هنا أخذ يُفَكِّر بمُمارسةِ الصَّحافة، وبالتخطيط لمشْروعِ إنشاء مجلَّةٍ ثقافيَّة. كان فرح يَسْعى، كُلَّ يَوْمٍ، إلى التَّطوُّر والتَّقدُّم، يَدْفعُه إلى ذلِك شعورٌ بعدم الرِّضى، ورَغْبةٌ غَيْر مُحَقَّقة. وعنْدما باشرَ الكِتابة، راح يوقّع مقالاته بأسماء مستعارة. وكان مقاله الأول في الأهرام ،[بعد قدومه إلى الإسكندريّة عام ١٨٩٧] تَحْتَ عُنوان "دائرة الحَق"، وبتَوْقيع "سلامة"[١]. [والكثير من مقالاته، في تلك الفترة، وقَّعها بتوقيع مُستعار].وقد أثارَ اهْتِمامَ القُرَّاء والأدباء المِصْريّين الذين كانوا يُحاوِلون كَشْفَ هوّيَّته.

عصر فرح أنطون

تَجْدر الإشارة إلى أنَّ الحدث الرَّئيسيّ، الاقْتِصادِيّ والاجْتِماعيّ، الذي كان لَه الأثر الفعَّال على لبنان في الثلث الأخير من القَرْن التَّاسع عشر، هو مَيل اللبنانيّين الكبير للهجرةِ إلى البلادِ الأجْنبيَّة. ويُفَسَّر هذا الميْلُ مِن خلالِ ثلاثة عوامِل رئيسيّة:

١. نِظام كَبْح الحُرِّيَّات"الذي كان يُمارِسُه النِّظامُ العُثْماني بشَخْصِ عبد الحميد (١٨٧٦-١٩٠٩) في الولايات العُثْمانيَّة، ومِنْها ولاية بَيْروت، حَيْث كانت الصَّحافةُ والأحْزابُ خاضِعَةً لِلرَّقابة كما لِقوانين تعسُّفيَّة تَحُدُّ من الحُرِّيَّةِ الفَرْديَّة والحُرِّيَّةِ الاجْتِماعيَّة، ممَّا أدَّى بأنصارِ حُرِّيَّةِ المُعْتقدِ المتحمّسين للاستِقلال، وكثيرين غَيْرهم من الصَّحافيين والكُتَّاب بصورةٍ خاصَّة، إلى الهجرة، فكانت وجْهتُهم المفضَّلة أميركا بصورةٍ خاصَّة، وفرَنْسا، ومِصْر". وفي مصر، التي سيقصدها فرح أنطون، شكل اللبنانيّون جاليةً غنيَّة ذات تأثيرٍ ومكانةٍ كبيرَيْن، إذ ساهمَ ذكاءُ أعضائها، وفعاليَّتهم، في التَّطوُّر الهامّ لهذا البلد المُزْدهِر. وقد كانت إحدى مُبادراتهم إنشاء صحافةٍ عربيَّة، وكانوا وَحْدهم، ولمُدَّةٍ طويلةِ الأمَد، الموجِّهين الفِعْليّين لها. فكانوا يَسْتطيعون، من خِلالِها، التَّعْبيرَ عن آرائهم ودعواتِهم إلى الوطنيَّة، من دون أن تكون السُّلُطات العُثْمانيَّة في وَضْعٍ يُمكِّنُها من كَبْحِ جماحِهم أو مُلاحقتِهم[٢].

٢. سبب اقْتِصادِيّ صرفٌ: كان لبنان يَخْرُج من مجازِر رهيبة، وحَرْب مدنيَّة، أدَّت إلى إفلاسِه اقْتِصاديًّا واجْتِماعيًّا. وكان هذا البلدُ الصَّغيرُ عاجِزًا، كُلَّ العَجْزِ، عن تأمينِ حاجاتِه بنَفْسه: "وراح اللبنانيّون يَبْحثون في الغُرْبة عن منافِذ لتوسُّعهم الاقْتِصاديّ والبشريّ نظرًا لضيقِ أرضهم، فانْصبَّت مَوْجةٌ من المهاجرين على مِصْر والأميركيَّتَيْن وإفريقيا وأستراليا، حَيْثُ نشأت جاليات لبنانيَّة غنيَّة ونافِذَة"[٣].

---

١ [نشير إلى أنّ أحد أبناء مريانا، شقيقة فرح وزوجة أسعد كرم، يحمل اسم "سلامة". فهل يكون هذا هو السبب الذي دفعه إلى توقيع مقاله الأوّل بهذا الاسم؟. ويذكر هنري خوري، في رسالته، **فرح أنطون وأدبه الاجتماعيّ**، مرجع سابق، ص ٦، أنّه وقّع بهذا التوقيع و"كأنّه خشيَ على سلامته". ونشير كذلك إلى أنّ أسعد كرم، زوج مريانا أنطون، هو جدّ شارل مالك لأمّه ظريفة كرم، ابنة مريانا أنطون. وسنعود إلى توضيح صلة النسَب بين فرح أنطون وشارل مالك في ملحق خاصّ في ختام هذه السيرة].

٢ زين ن. زين، نشوء القوميّة العربيّة ، بيروت الطبعة الثانية، دار النهار للنشر، ١٩٧٢، ص ٥٩ وما يليها.

٣ جواد بولس، " التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام"- دار عوّاد للطباعة والنشر ، ص ٣٣٩.

٣. الوسط المنفتح للبيئة المصريّة على جميع الصعُد: كانت مصر تتمتّع، منذ عام ١٨٨٢، تحت لواء النفوذ الإنكليزيّ، بحرّيّة التعبير، وباستقلاليّة شبه كاملة بالنسبة للسلطنة العثمانيّة. وكانت مضيافة تُحسِن استقبال المهاجرين اللبنانيّين، إذ كان فيها، في ذلك العهد، مَيْلٌ إلى إصلاح الحكم، وعَصْرَنة الإدارة.

لِذلِك كانت مصر بأقصى الحاجةِ إلى ذوي الاختصاصات من اللبنانيّين لمَنْحهم المراكز التي كانت تَسْمَح لهُم قدُراتُهم بمِلْئها بجدارةٍ كُلّيّة، ففتحَت لهُم المجال في الطبِّ والصَيْدلةِ، والإدارةِ المدنيّة والحربيّة[١]. وكُلَّما كانت تشتدُّ وطأة الأحْكامِ التعسُّفيّة والمراقبة على المواطنين والمفكِّرين [في لبنان]، كُلَّما كان يَزْدادُ عدَد الكُتّابِ والصَّحافيين اللبنانيّين في مصر[٢]. نذكر منهم، على سبيلِ المثال: أديب اسحق، وجرجي زيدان، وشبلي الشميّل، ويعقوب صرّوف، وآخرين. وإنّ القيودُ التي أحْكمَ فَرْضَها حُكْمُ العُثْمانيّين في طرابلس وبيروت وغيرهما من المدن اللبنانيّة، في عَهْدِ السُّلطان عبد الحميد، من تَقييد للفِكْرِ وقَمْعِ الحُرّيّات، جعلت فرح أنطون يَلْجأ إلى مِصْر في عَهْدِ الخَدْيوي إسماعيل. وتحت حُكم هذا الأخير، وفي ظلّ النفوذ البريطانيّ، حيث كانت الحرّيّات الفكريّة متوافرة نسبيًّا، [قَدِمَ فرح أنطون إلى] مصر عام ١٨٩٧، مُتَمرِّسًا بالصَّحافة وشؤون الفِكْرِ، وهبطَ الإسْكندريّة. وكان قَبْل قدومه إلى وادي النِّيل قَد اصْبَحَ مَعْروفًا في حَقْلِ الصَّحافة، إذ كان قد قامَ بمُراسلةِ مجلاَّت "كالمقْتطف"، وصُحُف مِصْريّة "كالبلاغ المِصْري" الصادِرة بالفرَنْسيّة، و"الأهرام" الكُبْرى.

فرح أنطون الصَّحافيّ

في مِصْر بدأ يفكّر بمُمارسةِ الصَّحافة بصورةٍ مستقلّة، إذ كانت تُعْتَبَرُ من أهم الوسائل العلميَّة في تَوْجيه الأفْكارِ، وقِيادةِ المجْتمعات الإنْسانيَّة. وبَعْد انْقِضاء سنتَين، أزْمعَ على إنْشاء مجلَّةٍ تَنْطُقُ بالأفْكارِ التي تأثَّر بها، وتَنْقُلُ إلى القُرَّاء نظريَّات فلسفيَّة لَم يَعْهدوها من قَبْل، فكانت "الجامِعة العُثمانيَّة"، [التي أنشأها في الإسكندريّة عام ١٨٩٩، والتي أرادها، كما جاء في عنوان المجلّة الفرعيّ، "مجلّة سياسيّة علميّة أدبيّة تهذيبيّة"، واتّخذ شعارًا لها كلمتَي: "الله والوطن" اللتين تتصدّران الصفحة الأولى عن يمين "الجامعة العثمانيّة"، وكلمتَي "الاتّحاد والارتقاء" عن اليسار. صدر العدد الأوّل منها في ١٥ آذار من السنة ذاتها، وكان يعاونه في إدارتها ابن شقيقته مريانا، زوجة أسعد كرم، "الشابّ الأديب مخائيل أفندي كرم"[٣]]. وفور إنشائها انْتشَرَت بسُرعةٍ مُدْهِشةٍ لما فيها من الجديدِ والجريء من الأبحاث الأخلاقيَّة والعِلْميَّة والدِّينيَّة: "فبدَت فيها مواهِبُ فرح أنطون، وبدأ بها حياتَه القلميَّة الحقَّة، ولَقِيَ من جرجي زيدان مؤازرةً طيِّبةً"[٤]. وعلى الرغم من أعبائه الجديدة، وكثرة مشاغلِه في مِصْر، ظلَّت عائلتُه الهَمَّ الأكْبر في حياتِه. فهو لم يَنْسَها قطّ، وشاركها ألمَها لدى مَوْتِ شقيقه [مخائيل أنطون "بالحمّى التيفوئيديّة التي اتّخذت من دماغه وقلبه مَقِيْلًا لها فلم تُمْهِلْه أكثر من اثني عشر يومًا، فراح إلى ربّه وعمره ٢١ سنة". حدث ذلك في الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٨٩٩. وكان فرح، "لكثرة أشغال الجامعة"، قد استدعاه

١ فيليب حتّي، لبنان في التاريخ – دار الثقافة – بيروت ١٩٥٩ ، ص ٥٧٥- ٥٧٦.

٢ تجدر الإشارة إلى أنّ الهجرة اللبنانيّة استمرّت حتى عام ١٩٠٨ حين وُضِع حدٌّ لحكم العثمانيّين المطلق، فكانت العودة الجزئيّة لقسم كبير من اللبنانيّين.

٣ الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠- ١٩٠١، ص ٧٣٦. ويشير فرح، في الموضع نفسه، إلى أنّ ابن شقيقته مريانا، مخائيل كرم، تولّى إدارة الجامعة مدّة عامَين اضطرّ بعدهما إلى تركها "للاهتمام بأعماله التجاريّة، والسفر مع حضرة والدته إلى لبنان تبديلًا للهواء"].

٤ أحمد أبو الخضر منسي: "فرح أنطون صاحب مجلّة الجامعة، رسالة نقد وتحليل، مصر، ١٩٢٣، ص ٢٠.

لمعاونته" في شؤونها. فسبق داعي ربّه داعي الجامعة"، وقضى قبل بلوغ دعوة شقيقه إليه]. فكانت هذه المصيبة التي ألمَّت بعائلة أنطون فاجِعةً قاسِيةً لفرح، ظهرَت آثارُها في المقالات التي كتبها في رثاء شقيقِه، وقد تمَّ نَشْرها، فيما بعد، في مجلَّة "الجامعة العُثْمانيَّة"[١].

في مُقدَّمة الجزءِ الأوَّل من المجلَّة، السَّنة الأولى، الصَّادِر في الإسكندريَّة في ١٥ آذار ١٨٩٩، يُعْلِمُنا فرح أنَّه، بمؤازرةِ بَعْض أفاضِل العُلماء والكُتَّاب في مِصْر وسوريا، قرَّرَ إصْدارَها للإفادة والاستفادة من هذه الخدمة الأدبيّة، وغرضُه مِنْها خِدْمة الوطن العُثْمانيّ، والمِصْريّ، والجامعة العُثْمانيَّة بنَوْعٍ خاصّ، فتَبْحَثُ المجلَّةُ في ما يَجْمعُ لا في ما يُفرِّقُ، واضِعةً الوطنَ فَوْق كلّ أمْرٍ سِواه، مُعْتمِدةً في مباحثها على الفائدة قبل اللذّة، مُجتَنِبَةً الطعن والتخلُّف، وهما الداءان الفاشيان في أيّامه في أكثر الصُّحُف الشرقيَّة. وقد اتَّكل فرح على أنْصارِهِ من الأفاضِل والكُتَّاب في القَطْرَيْن المِصْري والسُّوري يشدُّون أزْرَ مجلَّتِه، لاسيّما وأنّها تُمثِّلُ مَبْدأ تآلُفِ العُثْمانيّين حَوْل العَرْشِ الحميدِيّ، وصاحبه عبد الحميد خان الثَّاني. ووزَّعَ فرح مَنْشورًا على الأصدِقاء، وبَعْضِ الأُدباء في مِصْر والشام والعِراق وتركيا والهند وأميركا وأوروّبا، وغَيْرِها من الأقطار، وفيه يقولُ إنَّه لَقِي مؤازرةً مِنَ الجميع فَوْق ما كان يَنْتَظِر، وقد راقَت مبادئ المجلَّة للقرَّاء[٢].

إنَّ عُنْوان "مجلَّة الجامِعة العُثْمانيَّة" يَخْتصِرُ هدفَ فرح السياسِيّ والاجْتِماعيّ في إصلاحِ الشَّعْبِ والدَّوْلة[٣]، أي الدَّوْلة العُثْمانيَّة بالتَّحْديد، لتُصْبح دَوْلةً راقيةً بَيْن دُوَلِ الأرضِ، وتكونَ رابِطةً لمُختْلفِ العناصِر فيها[٤]. [وسعيًا لتحقيق هذا الهدف الإصلاحيّ، وجّه أنطون] انتِقادًا للدَّوْلةِ العُثْمانيَّة ولسياستها العامَّة، وذلِك من خِلالِ لَحْظِه مدى التَّخلُّفِ الذي تعاني مِنْه، وإبرازِهِ لدرجةِ الرُّقِيّ في البُلْدان الأُخرى. لكِنْ، وفي مُحاولةٍ مِنْه لتجاوُزِ حدود السَّلطنة العُثْمانيَّة، قام فرح أنطون لاحِقًا بتَحْويرِ اسْمِ المجلَّةِ، وإسْقاطِ كلِمة "العُثْمانيَّة" من العُنوانِ، مُحاوِلًا اسْتِبدالها بكلِمة "الشرقيَّة"، ولكِنَّ هذِه الكلمةَ الأخيرةَ سقطَت أيْضًا، وأصبْحَ اسْمُ المجلَّةِ "الجامِعة" فقط[٥]. ومن خِلالِ هذا التَّغْييرِ في العُنوان، عَبَّر المؤلِّفُ عن نَزْعةٍ مُتحرِّرةٍ واسِعَة الآفاق، ورَغْبةٍ جامِحةٍ في التَّطوُّرِ والتَّقدُّم، فانْتقَل بمَوْضوعِهِ من الخاصّ إلى العامّ، فشملَت أبحاثُه، فيما بَعْد، شؤونَ السِّياسة والفلْسفة والاجْتِماع والتَّرْبية والتَّرْجمة والنَّقْد والرِّواية والمسرح وغيرِها.

لقد كان على فرح أنطوان أن يُراعِي، في مجلَّتِه، مُقْتضيات الأحوال من أخبار طارِئة تتعلَّقُ برِجالات البلاد، والسُّلْطة القائمة، والأوضاع الطَّائفيَّة، وأنباء وطنِه الأُم، والنَّشاطات الثَّقافيَّة. [ومن الأمثلة على ذلك نذكر بعض ما أورده فيها، وعلى فترات زمنيّة متباعدة نسبيًّا]:

---

١ [تُراجَع مقالة أنطون "مُصاب الجامعة" المنشورة في باب "تاريخ الأسبوعَين" من أبواب الجامعة، السنة الأولى، القسم الثاني، الجزء التاسع عشر، ١٨٩٩، ص ٤٥٣– ٤٥٦. يُراجَع أيضًا النبأ الذي نشرته الجامعة في الجزء التالي (العشرين) من أجزائها للسنة نفسها، تحت عنوان "تكرار الشكر– صدور الجامعة في آخر الشهر"، ص ٤٧٩، وفيه، فضلًا عن شكر المُعَزّين، تصويب التاريخ الذي توفيّ فيه شقيقه وهو "٣٠ نوفمبر" وليس "٣٠ سبتمبر" كما ذُكِر "سهوًا في الجزء الماضي"].

٢ الجامعة العثمانيّة، السنة الأولى، القسم الأوّل، ١٨٩٩، ص ١، ٦– ٨ .

٣ الجامعة العثمانيّة، السنة الأولى، القسم الأول، ١٨٩٩، الأجزاء الثلاثة الأولى.

٤ "كان فرح يتوق إلى رؤية الشرق تجمعه جامعة واحدة، جامعة الجنس واللغة والعادات، ولا تفرّقه المذاهب والمعتقدات. ومن أجل هذا الأمر بالذات أنشأ مجلّة الجامعة": أحمد أبو الخضر مَنسي، فرح أنطون صاحب مجّلة الجامعة، رسالة نقد وتحليل، مصر، ١٩٢٣ "ملحق السنة الرابعة" ص ٤.

٥ لقد استبدل اسم "الجامعة العثمانيّة" باسم "الجامعة" منذ السنة الثانية للجامعة (١٨٩٩)، العدد ١٣، ثمّ يذكر فرح أسباب التغيير في الأعداد ٦ و٧ و٨ من الجامعة، السنة الرابعة ١٩٠٣.

تُوفِّي الشَّيْخ نجيب الحداد حفيد الشَّيخ ناصيف اليازجي، فأسِفَ فرح له كُلَّ الأسف، وراح يُطْري مناقِبَه ويُشيدُ بمَنَزِلته في عالميْ الشِّعرِ والأدبِ، ناشِرًا له من آثاره من عددٍ إلى آخر من "الجامِعة العُثْمانيَّة"[١].

وخطفَت يَدُ المنون بشاره تَقْلا باشا الطَّائر الصِّيت فاهْتزَّ فرح لِنبإ وفاتِه، وأنشأ مقالًا أدبيًّا نشرَه في مجلَّتِه يُشيدُ فيه بمناقِب الرَّجُلِ الذي بلغ أقْصى الشهرةِ، وأوْسع الثَّرواتِ، وأسمى المراكز، يُشْرِفُ من على مِنْبرِ أهرامِه، "الأهرام العربيَّة" و"الأهرام الفرَنْسيَّة"، على ملايين من

الأُممِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ يُخاطِبُهم بقلمِه وأقلامِ كُتَّابه، وقد اعْتبَر صاحِبُ "الجامعة" أنَّه، بمَوْتِ بشاره تَقْلا باشا، يموتُ "أعْظمُ صحافِيّ في الشَّرْقِ مُنْذ إنْشاء الصَّحافة فيه إلى هذه الأيَّام". ويَبْدو من إطْراء فرح أنطون لمنشئ "الأهرام" أنَّ هذا الأخير كان له الفَضْلُ الكبير علَيْه وعلى مجلَّتِه "الجامِعة"[٢].

واحتفلَت الطَّائفةُ الأرثوذُكسيَّة في بَيْروت بإقامةِ تِمْثالٍ لكورنيليوس ڤان ديك، أستاذ العُلوم الطبيَّة في مستشفى القديس جاورجيوس، فراحَ يُطْري فضائلَه وتَضْحياته[٣]. وعلى الرُّغْمِ من أنَّ فرح أنطون قضى حياتَه يُبشِّر بالأفْكارِ الثَّوْريَّةِ مِن أيَّةِ جِهةٍ أتَت، ومع ابْتِعادِه عن الرُّوحِ الطَّائفيَّة، فإنَّه كأُرْثوذُكسِي أعطى نصيبًا وافِرًا من مجلَّتِه لأخْبارِ الطَّائفةِ الأُرثوذُكسيَّة، في سوريا ولبنان، ولإكْليروسها. فإذا ما انْتُخِبَ بَطْرِيَرْكٌ جديدٌ كان له في "الجامعة العُثْمانيَّة" مكانٌ واسِعٌ، وإذا ارْتَسمَ أحدُ أساقفَة الأُرثوذُكس، كانت "الجامعة العُثْمانيَّة" الوحيدة بَيْن المجلاَّت الكُبْرى في مِصْر التي تَنْقُل الخبرَ إلى القُرَّاء[٤].

بالرُّغْمِ من انشغالِه بشؤون مجلَّتِه، وشُجونِها، وبُعْدِه عن الوطن، فقد ظَلَّ فرح يحنُّ إلى مَسْقطِ رأْسِه، فيَنْشرُ وفيَّات كِبارِ المجْتمعِ الطَّرابُلُسِي، ويَنْقلُ عن جرائد لبنان أخبارَ البلاد، ومن هذِه الجرائد "ثمرات الفُنون" البَيْروتيَّة[٥]. فقد كان بحاجةٍ ماسَّة إلى تسقُّطِ أخبارِ وطنِه بقدرِ ما يفتقِرُ إلَيْها في مجلَّتِه.

[وكان فرح مضطرًّا لمماألأة السلطان العثمانيّ، وخديوي مصر، إذ] لا بُدَّ من إرضائهما لتَسْهيل أمر المجلَّة في مُخْتلفِ الميادين. فإذا ما رُزِقَ الخَدْيوي المِصْري ولدًا، هو وليّ العَهْد، راح فرح يُحيّي طلوعَه تحيَّة الساري طُلوع البَدْر، يُحيِّيه بدرًا مُنيرًا وهِلالًا صغيرًا، يُحيِّيه طفلًا لأبٍ تَفْديه الأطفال والآباء[٦]. وفي الإسكندريَّة كان فرح يعيشُ كأيّ مُواطِنٍ مِصْريّ آخر، يُسبِّحُ ويُمجِّدُ جناب الخَدْيوي المُعظَّم. فإذا ما اعْتلَّ الخَدْيوي، اهْتزَّ وراح يُبْدي أسفَه على صفحات "الجامعة العُثْمانيَّة"، ويَنْشرُ التلغرافات التي تَرِدُ عن صحَّتِه. وإذا تحسَّنَت صِحَّتُه يُعْلِن ارْتياحَه. وإذا برئ الخَدْيوي، حمدَ اللّه سُبْحانه وتعالى على سلامةِ سُمُوِّ الأميرِ المعَظَّم، دام مَحْروسًا بعنايةِ اللّه تعالى[٧].

---

١ الجامعة العثمانيّة، السنة الأولى، القسم الأوّل ١٨٩٩، ص ١١.

٢ الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠– ١٩٠١، ص ٧٣٧. [وللمزيد حول بشارة باشا تقلا، مؤسّس "الأهرام" وصاحبها، تُراجَع مقالة أنطون: "فقيد الشرق العظيم بشارة باشا تقلا" في: الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠– ١٩٠١، ص ٧٣٧– ٧٤٤].

٣ الجامعة العثمانيّة، السنة الأولى، القسم الأوّل، ١٨٩٩، ص ١٣.

٤ خبر انتخاب البطريرك الأرثوذكسيّ الأنطاكيّ الجديد وهو ملاتيوس الدومانيّ مطران اللاذقيّة: الجامعة العثمانيّة، السنة الأولى، القسم الأوّل، ١٨٩٩، ص ٧٦– ٧٧.

٥ الجامعة العثمانيّة، السنة الأولى، القسم الأوّل، ١٨٩٩، ص ١٣.

٦ الجامعة العثمانيّة، السنة الأولى، القسم الأوّل، ١٨٩٩، ص ١٢.

٧ الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠– ١٩٠١، ص ١٩٤.

مَعْرِض باريس عام ١٩٠٠

في حزيران عام ١٩٠٠ أُقيمَ مَعْرِض باريس العامّ، فسافرَ فرح إلى فرنسا وزارَ المَعْرِض في يَوْمٍ واحِدٍ، واطَّلَعَ على المَعْروضات، خاصَّةً تِلْكَ المُتعلِّقة بالعُلوم والفُنون والآداب، ووسائل النَّقْلِ، والصَّنائع الكيماويَّة والكَهْربائيَّة، ووصفَ كُلَّ ما شاهده في مجلَّتِه وَصْفًا دقيقًا مُشوِّقًا[١].

فرح أنطون رئيسًا لتحرير جريدة "صَدى الأهرام"

كانت "الجامعة" تَصْدُر مرَّتَيْن في الشَّهْر في سنتِها الأولى. وقد بقيَت على هذا التَّرتيب، في صدورها، حتَّى أُصيبَ فرح بفُقْدان شقيقِه، الأمْر الذي ترك أثرًا شديدًا في نَفْسِه وصِحَّته، فأصابَه ضَعْفٌ عامّ، وأشارَ عليْه الأطِبَّاء بالانْقِطاعِ عن العملِ أو بتَخْفيفِه على الأقلّ خشية أسوإ العواقِب. وتعرَّضَت "الجامعة"، من جرَّاء ذلِك، إلى خطرِ التَّوقُّف، وكلّ ذلِك بمعزِلٍ عن قُرَّائها وأصدِقائها وخِفْيةً عَنْهُم. ولكِن لمّا كانت المجلَّةُ هي، بحسبِ قَوْلِ فرح أنطون، لقُرَّائها وللجُمْهور، فقد خالَف نصيحةَ أطبَّائه وداومَ العمل مُتَّكِلًا على اللّه، وكأنَّ العِناية الإلهيَّة أرادَت بالجامِعة خيرًا، فاستعادَ فرح شَيْئًا من القُوَّة بَعْد ذلك الضُّعْفِ الشَّديدِ الذي حلَّ بصحَّتِه من جرَّاء الإجهادِ، والحُزْنِ الشَّديدِ على أخيه[٢].

ما إن استعادَ فرح عافيتَه حتَّى عُهِدَ إلَيْه بدَوْرٍ صُحُفِيّ جَلَل إلى جانِب قيامِه بعَملِه في "الجامعة". فبعد انتقال صحيفة "الأهرام" من الإسكندريّة إلى القاهرة، اقترحَ علَيْه سعادة المِفْضال بشاره تقلا باشا، مدير "الأهرام"، أن يتولَّى رئاسةَ جريدة "صدى الأهرام" اليوميَّة التي بقيَت تَصْدُر في الإسكندريَّة، فقَبلَ التَّكْليفَ شاكِرًا الرغْم من أنَّ وَضْعَه الصحّيّ لم يكُن يتحمَّلُ المِشقَّات[٣].

مشاغِل فرح أنطون الاجْتِماعيَّة

كان فرح، بحُكْمِ عمله الصُّحُفي، يطَّلِعُ بشَكْلٍ مُتواصِلٍ على أحوال الإسكندريَّة وشؤونِها الاجتماعيَّة، فيتسقَّطُ أخبارَ الوافِدين إلَيْها من كِبار القَوْمِ من أُمراء وأعيان، وكان الكثيرون منهم يزورُونه في مكْتبةِ مجلَّتِه "الجامعة"، ويُقيمون إلى جانبه السَّاعات الطِّوال في التَّحادُث بشؤون مُخْتلِفة. وفي بَعْضِ الأحيان كان الوزراء العُثْمانيُّون، أو أعيانُهم، يوفِدون مَرْؤوسيهم أو أُمناء سِرِّهِم لزِيارةِ فرح، والتمنِّي علَيْه بمقابلةِ رؤسائهم في الثَّغر، وكان يَعْتذِرُ في بَعْض الأحيان لِضيقِ الوَقْت[٤]. وكانت مجلَّةُ "الجامعة" في الإسكندريَّة غَيْر مَحْصورةٍ بشؤون التَّحْريرِ والعملِ الإداريّ، بل كان هُناك فرعٌ لبَيْعِ الرِّوايات التي تَنْشرُها من المُشْتركين ومن القُرَّاء، وكان ثمنُ الرِّواية كرِواية "نَهْضة الأسد" مثلًا عَشرةَ غُروش[٥].

---

١ الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠– ١٩٠١، ص ٢١٢– ٢١٦. [وكان فرح قد نشر قبل ذلك، ونقلًا عن جريدة إنكليزيّة تُطبَع في الآستانة، وأخرى فرنسيّة، تلخيصًا لما أوْرَدَتْهُ الأولى عن القسم العثمانيّ في معرض "باريز"، ولما أوردته الثانية عن القسم المصريّ فيه: الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠– ١٩٠١، ص ١٤٨– ١٥٠].

٢ [الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠– ١٩٠١، ص ٦٤٤– ٦٤٥].

٣ [الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠– ١٩٠١، ص ٦٤٥– ٦٤٦].

٤ الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠– ١٩٠١، ص ٣٦٦– ٣٦٧.

٥ [الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠– ١٩٠١، ص ٣٦٨. وهذه الرواية هي واحدة من سلسلة الروايات التي وضعها الروائيّ الفرنسيّ الشهير ألكسندر دِيماس عن الثورة الفرنسيّة، وقد ترجمها أنطون إلى العربيّة].

كانت مَكْتبةُ "الجامعة" مَقْصودةً من أقاصي البلاد المِصْريَّة التي كانت المجلَّة تصِلُ إلَيْها[1]. لكِنَّ المكْتبة الكُبْرى في الإسكندريَّة، آنذاك، كانت المكْتبة الخديويَّة لصاحِبها الأديب جرجي أفندي غرزوزي، مُدير جريدةِ "الرَّقيب". وكانت، في الوَقْتِ نَفْسِه، دارًا للنَّشر تَهْتمُّ بطَبْعِ الرِّوايات، وخُصوصًا المُعرَّبة منها. وكانت "الجامعة" من بَيْن المجلاَّت التي تُقدَّم إلَيْها الرِّوايات مجَّانًا، فتُعْلِنُ عن صُدورِها وتَدْعو القُرَّاءَ إلى اقْتِنائها وابتياعِها من المكْتبة الخديويَّة بأسعارِها المخفَّضةِ والزَّهيدة، فتحُثُّ بذلِك الأدباءَ على مُطالعتِها[2]. ولَمْ يَكُنِ القَصْدُ من إهْداء هذِه الرِّوايات إلى "الجامعة" إلّا على سبيلِ الدِّعاية. كما أنَّ المجلاَّت والصُّحُف كانت تَرِدُ إدارةَ "الجامعة" بالتَّبادُلِ مع أعداد هذِه المجلَّة. وكان فرح يطَّلِع، من خِلالِ الصُّحُف العالميَّة، والكُتب، والمجلاَّت المخْتلفة الميول والمصادر، على الاتِّجاهات الفَلْسفيَّة والتيَّارات الفِكْريَّة العالميَّة. وكانت أسماءُ كِبارِ الكُتَّابِ الغَرْبيّين والشَّرْقيّين ونشاطاتهم غَيْر بعيدةٍ عَنْه، فلا تفوتُه شاردةٌ ولا واردةٌ عن مُفكِّري عَصْرِه وأُدبائه. فكان مثلاً يُتابعُ أحْوالَ الرِّوائيّ والقصصِيّ الرُّوسيّ الشهير تولستوي. فلمَّا حَرَمَ المجْمعُ الرُّوسِي المقدَّس، أواخر عام ١٩٠٠، تولستوي، ازدادَ إقبالُ القُرَّاء على كُتبه، وتضاعَف اهْتِمامُ فرح به، فلخّص سيرةَ حياتِه في "الجامعة"، وراح يَنْشُر آراءَه وفَلْسفتَه، وكُلَّ ما عثرَ علَيْه من كِتاباتِه[3]. وبِفَضْلِه تعرَّفَ القُرَّاءُ العرب، للمرَّةِ الأولى، على الكاتِب الرُّوسيّ الشهير.

فرح أنطون المُترجِم

عكف فرح على المؤلَّفات الغَرْبيَّة يُترْجِمُ مِنْها أهمّ الدِّراسات والرِّوايات، ويقومُ بطَبْعِها. وهكذا عرَّف القرَّاء العرب بكونت، وكارل ماركس، ونيتشه، وحدَّثهم عن شكسبير، وقرأ لهم روسّو، وروى لهم حياةَ تولستوي، وترجم رينان، وجول سيمون، وسواهم[4]. وكانت لفرح طريقة خاصَّة في عَرْض نتاجه. فلمَّا اقترحَ علَيْه قُرَّاء مجلَّتِه أن يُهْدِي نَسْخةً من كِتاب "الكوخ الهنديّ" (لمؤلِّفِه برناردين دي سان بيار) الذي قام بِتَرْجمته لكُلِّ مُشْترِكٍ في "الجامعة" ولكُلِّ مُساعِدٍ لها، تردَّدَ في بادئ الأمْرِ لأنَّ عددَ الكُتب المطْبوعة منه تقلُّ عن عدد المشْتركين، ثُمَّ أعلنَ، فيما بَعْد، أنَّه عزمَ على تَقْديمِ الكِتابِ مجَّانًا إلى من يُسْرع في طلبه من الإدارةِ رأسًا، ومن وُكلائها في الجهات، فيُرْسَل إلَيْه في الحال. وحِفاظًا على ميزانيَّةِ المجلَّة أوضحَ أنَّه لا يُهْدي إلّا المُشْترِك الذي يكونُ قد سدَّدَ بدلَ الاشْتراك حتَّى نِهاية السَّنة الثَّالثة من المجلَّة. أمَّا المُشْتركون الجُدُد فيَحْصلون علَيْه بمُجرَّدِ دَفْعهم بدل الاشْتِراك[5]. وهذا الأمْرُ دليلٌ على الطَّريقة الخاصّة التي كان يتوسَّلُها فرح من أجْلِ عَرْضِ نتاجه وتَرْويجِه.

نتيجةً لذلك، ازدادَ عددُ مُشْتركي "الجامعة"، وتضاعفَ عددُ قُرَّائها، وأحرزَت شهرةً واسِعةً في أرجاء مِصْر وخارجها. وقد نالَت من النَّجاحِ ما لم يكن يتوقَّعُه فرح. [وفي مقالة له تحت عنوان "الجامعة ونشأتها ونموّها في عامين" يُصرّحُ] أنَّ الفَضْلَ في ذلِك لَيْس عائدًا

---

١ الجامعة، السنة الرابعة، ١٩٠٣، ص ٣٥٢– ٣٥٣.

٢ الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠– ١٩٠١، ص ٤٩٠.

٣ الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠٠– ١٩٠١، ص ٥٣٤– ٥٥٣.

٤ يقول فرح: "ثمّ إنّ الذين يظنّون أنّ الترجمة والتلخيص أمر سهل يخطئون خطأً عظيمًا، إذ القصد من الترجمة الصحيحة، إبراز مادّة المؤلّف بقالب مساوٍ لقالبها الأصليّ في القوّة والسهولة والجمال، وهذا يقتضي قوى كقواه. نعم إنّ ترجمةَ وتلخيصَ الفصول التاريخيّة والنباتيّة والصحيّة والطبيعيّة أمر سهل، لأنّ الكاتب إذا تصرّف فيها لا يشوّهها، ولا تقتضي تعبًا غير معرفة الأصول وضبط الاصطلاحات. ولكنّ ترجمة الموادّ الفلسفيّة والأدبيّة على الخصوص، بقالب كقالبها الأصليّ، لا يعرف صعوبته إلّا من عاناه": الجامعة، السنة الرابعة، ١٩٠٣، ص ٣٢٦– ٣٢٧ .

٥ الجامعة، السنة الثالثة، ١٩٠١– ١٩٠٢، الجزء الأوّل، ص ٤٨.

إلى المجلَّةِ فحَسْب، بَل أيْضًا إلى الوسطِ الكريمِ الذي عاشَت فيه، وإلى أنصار العِلْمِ والأدبِ الذين شدُّوا أزْرَها، وفي طليعتهم وُكلاء المجلَّة وأصدِقاؤها ومُساعِدوها. وقد نوَّهَ، غَيْر مرَّةٍ، بفَضْلهم، واعترفَ بجميلهم. الوكلاء هؤلاء لَيْسوا موظَّفين في "الجامعة"، يتقاضون رواتِبَ شَهْريَّة أو أُجَراء، وإنَّما هم أصدِقاء مُتطوِّعون، وهُم من خيرةِ أنصار العِلْمِ والأدب، وقد رأوا في خِدْمة "الجامعة" خِدْمةً خاصَّةً لها، وخِدْمةً للجُمْهور، فهبُّوا من كُلِّ جانبٍ إلى تَنْشيطِها ونَشْرِ مبادِئها لاحتياجِ المَنْطقةِ إلى المبادئ التي تَنْشُرها. أمَّا قُرَّاء "الجامعة" فمُنْتشِرون في الشَّرْقِ والغَرْب، بَيْنما مَرْكزُها في الإسكندريَّة[1]. ولَم يَكُن هذا النَّجاحُ ليعودَ على فرح إلَّا بمَجْدٍ مَعْنوي ومكانةٍ عِلْميَّة، إذ كان يجدُ لذَّةً فائقةً في عملهِ الأدبيّ والصُّحُفيّ.

كانت حرفةُ الصَّحافة والأدب تُلائم مزاجَ فرح، وتُناسِبُ المَثَلَ الذي اتَّخذَه شِعارَه مُنْذُ أيَّام حداثتِه في مَدْرسةِ كِفْتين، وطبَّقه نصًّا وروحًا على حياتِه الشَّخْصيَّة والعمليَّة: "خيْرٌ لي أن أكونَ عالِمًا فقيرًا من أن أكونَ جاهِلًا غنيًّا"[2]. ومضت أيَّام الحداثة، فالفتوّة، فالشباب، وهو في مَيْله إيَّاه، يَصْرِف العُمْر [في تغذية فكره وعمله]، والفِكر يعود عليه بنفقات حياته. ولقد أنشأ له العِلْم مَرْكزًا أدبيًّا مَرْموقًا، ولمجلَّتِه مكانةً عاليةً بين مجلّاتَ مصر.

صدور مجلَّة روزا أنطون (١٩٠٣–١٩٠٥)

في آذار ١٩٠٣ صدر إعلانٌ في الصُّحُف المِصْريَّة، يُنْبِيء بصدورِ "مجلَّة السيِّدات والبنات" لِرُوزا أنطون[3]، شقيقة فرح [وفي ما بعد زوجة المفكّر الكبير نقولا الياس الحدّاد][4]، وناظِرة مَدْرسةِ البنات الأميركيَّة بالإبراهيميَّة[5]، فأقبل علَيْها القُرَّاءُ وربَّاتُ البيوت. وقد بلغَ رواجها والإقبالِ علَيْها مَبْلغًا كبيرًا، إذ كانت المجلاَّتُ النِّسائيَّةُ شِبْه نادِرة في ذلِك العَصْر. وكان لفرح أنطون فَضْلٌ كبيرٌ على إنشاء هذِه

---

١ الجامعة، السنة الثالثة، ١٩٠١– ١٩٠٢، الجزء الثالث، ص ١٤٥– ١٤٦. [وفي هذه المقالة يعيّن فرح المصادر التي يستقي منها موادّ "الجامعة"، وهي "مؤلّفات علماء الإفرنج والعرب والكتب الإفرنجيّة التي تصدر حديثًا، والمجلّات [... ومنها] مجلّة المجلّات، ومجلّة باريز، ومجلّة العلم التصويريّ، ومجلّة الصحّة، وأحيانًا المجلّة الأنسيكلوبيديّة، ومجلّة المطالعات العامّة". أضف إلى ذلك الجرائد، ومنها "الطان والديبا والفيغارو والماتين"، فضلًا عن "الأنسيكلوبيدية (دائرة المعارف)": المرجع نفسه، ص ١٤٧].

٢ الجامعة، السنة الثالثة، ١٩٠١– ١٩٠٢، ص ٢٨٥.

٣ [هي شقيقة فرح. وُلدت في طرابلس عام ١٨٨٢، وتلقّت تعليمها فيها. سافرت إلى الإسكندريّة حيث كان شقيقها قد سبقها إليها، وتولّت النظارة في مدرسة البنات بالإبراهيميّة نحو عامَين. عملت مع شقيقها فرح في الصحافة، وأنشأت في الإسكندريّة، وبمساعدته، مجلّة السيّدات والبنات مطلع نيسان عام ١٩٠٣. سافرت أواخر عام ١٩٠٦ إلى الولايات المتّحدة لاحقة بشقيقها، وحرَّرت معه في مجلّتَي الجامعة اليوميّة والأسبوعيّة. وعام ١٩٠٨ تزوّجت نقولا الياس الحدّاد في نيويورك، وعادا معًا إلى مصر بعد عودة شقيقها إليها. وعام ١٩٢١، وبمعاونة زوجها نقولا الحدّاد، أنشأت في القاهرة مجلّة السيّدات التي صارت، بعد سنة، مجلّة السيّدات والرجال. وفضلًا عن ذلك فقد اشتهرت بما نشرته من الروايات المسلسَلة أو الصغيرة في أعداد مجلّتها، ومن المقالات في الجامعة. توفّيت عام ١٩٥٥].

٤ [هو من كِبار مفكّري الشرق. لبنانيّ الأصل والمنشإ والتربية، مصريّ الدار والإقامة. وُلِدَ في قرية جون (قضاء الشوف) سنة ١٨٧٠، وأنهى دراسة المرحلة الثانويّة في مدرسة صيدا الأميركيّة، ثمّ انتسب إلى الجامعة الأميركيّة في بيروت، وتخرّج منها حاملًا الشهادة في الصيدلة. سافر إلى مصر وحرّر مع فرح في مجلّة الجامعة، وفي غيرها من الصحف والمجلّات المصريّة. خطب عام ١٩٠٦ روزا شقيقة فرح. ولما سافر فرح إلى مدينة نيويورك، وتبعته شقيقته بعد فترة، لحق بهما نقولا بعد مدّة قصيرة، وعاون في إصدار الجامعة حوالي نصف سنة، وانصرف بعد ذلك إلى العمل في تجارة السجّاد. وعام ١٩٠٨ عقد قرانه على روزا في نيويورك، ثمّ قفل عائدًا إلى مصر، حيث راح يحرّر في جريدة "المحروسة" لصاحبها الياس زيادة، كما كتب القصص لسلسلة "مسامرات الشعب" لصاحبها خليل صادق. وعام ١٩١٠ افتتح صيدليّة في شبرا، وظلّ يكتب في "الأهرام"، وفي "المقتطف" و"الهلال". له عدد كبير من المؤلّفات المنشورة، الموضوعة والمترجَمة، يربو على الستين، في مختلف حقول المعرفة، وله بعض المؤلّفات التي لا تزال مخطوطة. أمّا وفاته فكانت عام ١٩٥٤. وللمزيد حوله يُراجَع: داغر، يوسف أسعد، "نقولا الياس الحدّاد (١٢/٢٥/ ١٨٧٠)" في **مصادر الدراسة الأدبيّة، الجزء الثاني، الفكر العربيّ الحديث في سيّر أعلامه، الراحلون، ١٨٠٠– ١٩٥٥**، بيروت، ١٩٨٣، منشورات الجامعة اللبنانيّة، ١٩٨٣، ص ٢٩٨– ٣٠٣. يُراجَع أيضًا: نجم، محمّد يوسف،"نقولا حدّاد (١٨٧٢– ١٩٥٤)" في **القصّة في الأدب العربيّ الحديث، ١٨٧٠– ١٩١٤**، ص ١٠١– ١٢٢].

٥ الجامعة، السنة الرابعة، ١٩٠٣، ص ١٣٠– ١٣٢.

المجلَّة، إذ كانت شقيقتُه حديثةَ العَهْدِ بالصَّحافة، وهدفها الأساسِيّ إصْدار مجلَّةٍ نِسائيَّةٍ لها مُسْتوى رفيع. فاضْطرَّ، على كثرةِ مشاغلِه، إلى تبنِّي هذا المشروع ، وأخذ يُحرِّر في المجلَّة بَعْض الأبواب، وهي تلك التي تَحْتها "ثلاثة أنْجم". فضلًا عن مقالات أخرى حرَّرها ووقَّعها بتواقيع مُستعارة. أمّا باقي أبواب المجلّة فهي "لا تستغني عن ملاحظته"[١].

[أمّا ما كان تتضمّنه هذه المجلّة الجديدة من موادّ فموزَّع على أبواب عديدة، وهو ممّا يهمّ السيّدات وربّات البيوت في الغالب؛ ومنها، على سبيل المثال، واحد مخصَّص "لترجمة شهيرات النساء الشرقيّات والغربيّات"، وآخر موضوعه "الأمّ والولد والمدرسة"، وثالث هو "باب المنزل والمطبخ والمائدة"، فضلًا عن "باب مراسلات بين بنات شرقيّات"، وباب "أخبار نساء الغرب"، و"باب أخبار نساء الشرق في صحافته". يُضاف إلى ذلك "باب القصص الشهريّة"، وباب "فوائد وفكاهات"، وباب "صحيفة الأزياء". ومع كلّ جزء من

أجزائها كانت المجلّة تهدي "كلّ واحدة من قارئاتها تفاصيل من ورق مثالًا لهذه الأزياء الجديدة، وتنشر رسومها"[٢]. واستمرَّت روزا في عملِها مدّة سنتَيْن من دونِ انْقِطاعٍ حتَّى سفر شقيقِها إلى أميركا.

توقُّف الجامعة في مصر والاستعداد للانتِقال إلى أميركا

[كان الجزء التاسع والعاشر، الصادر في الإسكندريّة سنة ١٩٠٤، خاتمة أعداد الجامعة في سنتها الرابعة، وتوقَّفت بعده عن الصدور في مصر[٣]. وبذلك تكون الجامعة قد "نامت"]، كما يقولُ فرح، نَوْمًا طويلًا[٤]، أي توقَّفَت عن الصدور في الإسكندريَّة استعدادًا لانتقالها إلى العالمِ الجديد. وقَبْل خُروجِه من مِصْر، وزَّع في نيسان ١٩٠٦ "كتابًا مطبوعًا"[٥] إلى مشترِكي الجامعة وقرّائها يشرح فيه "سبب الانتقال إلى نيويورك"، ويَعِد بعودة الجامعة "إلى الظهور بعد مرور أربعين يومًا على وصول هذا الكتاب" إليهم. [ويبدو أنّ أنطون كان يُخطّط للانتقال إلى القاهرة، لا مغادرة الإسكندريَّة إلى أميركا، فقصدها واستأجر "مكتبًا فيها للانتقال إليها لشغلٍ آخر غير شغل الجامعة". لكنّه، وحين عودته "إلى الإسكندريّة للشروع في الانتقال"، وصلته رسالة من رفيق صباه وطفولته، ابن عمّه الياس أنطون التاجر في نيويورك، يرغّبه فيها للانتقال إليها، ويبدي استعداده لضمّ شغله التجاريّ إلى شغل أنطون الصحافيّ، وأن يكونا شريكَي "مناصفة في كليهما". وبالفعل فقد كان هذا العرض حاسمًا بالنسبة لفرح، ودفعه إلى حسم خياره، والتوجّه إلى نيويورك عوض الانتقال إلى العاصمة المصريّة].

خرج فرح من مصر، إذًا، وكان يرجو ألَّا يكون خُروجُه كخُروج الإسرائيليّين مِنْها[٦]. وقدأثارَ خروجه هذا تساؤل الجميع، فعَزاهُ البَعْضُ إلى نُضوبٍ مُعَيَّنٍ في المادَّة، واتَّهمهُ آخرون بجفافِ الفِكْرِ. ولكِنَّ الحقيقة أنّ فرحًا كان عازمًا، بعد حسم خياره بالانتقال إلى نيويورك،

---

١ الجامعة، السنة الرابعة، ١٩٠٣، ص ١٣١.

٢ [الجامعة، السنة الرابعة، ١٩٠٣، ص ١٣١– ١٣٢].

٣ الجامعة، السنة الرابعة، الجزء ٩ و ١٠، سنة ١٩٠٤، ص ٣٥١.

٤ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٢٣.

٥ [تُراجَع مقتطفات من هذا الكتاب في مقالة: "تذكار انتقال الجامعة" المنشورة في مجلّة الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٢٣– ٢٧. كما يُراجَع، بعدها مباشرة وعلى الصفحتين ٢٧– ٢٩، نصّ كتابَي الوداع والشكر، مع الإشارة إلى أنّ الكتاب الأوّل لا يحمل تاريخًا، علمًا أنّ فرح يذكر أنّه كتبه إلى صحافة مصر قبل سفره؛ بينما يحمل الثاني تاريخ ١٩حزيران ١٩٠٦، وقد كتبه بُعَيد وصوله مباشرة إلى نيويورك، وقُبَيل صدور الجزء الأوّل من الجامعة هناك أوّل تمّوز ١٩٠٦].

٦ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٢٣.

على إنشاء مَرْكزٍ صُحُفِيّ واسِع النِّطاق في أميركا، بهدفِ بثِّ المبادئ الحُرَّة في عالَمِ المهْجر[١]. وهكذا سافرَت مجلَّةُ "الجامعة" إلى نيويورك بشَخْصِ مؤسِّسِها، وأطلَّت على المغْتربين بحلَّةٍ جديدة: "مجلَّة نصف شَهْرِيَّة، وصحيفة يَوْميَّة، وجريدة أسبوعيَّة"[٢]، وقد توجَّه فرح، في العددِ الأوَّلِ من "الجامعة"، الصَّادِر في نيويورك في الأوّل من تمّوز سنة ١٩٠٦، إلى القرَّاء المصْريين وسِواهم مُعْتذِرًا عن هذا التَّوقُّفِ، وذلك الانْتِقال، لأنّ مُجرَّدَ ذِكْر الأسباب يؤلِمُه لِمَا تكبَّدَه من خسائر في الوَقْتِ والتَّعْطيلِ والمال، وكلّ ذلك يَسْتهدِفُ "الجامعة" وقُرَّاءها ومُديرها[٣].

حين أوقف فرح إصدار مجلّته في الإسكندريّة، وراح يتحضَّر للانتقال إلى الولايات المتّحدة، أحسَّ بالكآبةِ الحقيقيَّةِ لأنّه سيُغادر بلاده الشرقيَّة التي عاش فيها أفْضلَ أيَّام صِباه، ومِصْر التي شهدَ في رُبوعِها أحْسنَ أيَّام شبابه. لكِنَّ عَزْمَه على إبْقاء الصِّلات بَيْن "الجامعة" ومُشْتركيها، من أهْلِ الفَضْلِ والأدب، من شأنِه أن يُعزِّيه. ومن أجْلِ هذا السببِ أبْقى فرح لمجلّتِه إدارةً في القَطْرِ المصْري، فكأنَّ مَرْكز "الجامعة" في مِصر لم يتغيَّر لأنَّ إدارتَها فيها بقيَت هي نَفْسها، وجميع مُشْتركيها ومُراسِليها في مِصْر ظَلَّ بإمْكانهم مُراسلَتها بريديًّا، فلا يكونُ فَرْقٌ بَيْن الماضي والمسْتَقْبل سِوى أنَّ "الجامعة" كانَت تُطْبعُ في الإسْكَنْدريَّة، فأصْبحَت تُطْبعُ في نيويورك[٤].

أمْرٌ آخر جلبَ الارْتِياحَ إلى قَلْبِ فرح في هذا التَّغيير، هو انْتِقاله من وسَطٍ صغير إلى وسَطٍ كبير. فالشرقُ في نظرِه "بلادٌ صغيرةٌ ضعيفة لَمْ تَبْلُغ المدنيَّةُ فيها، بعدُ، مَبْلغًا تَسْتحِقُّ معه أن تُتَّخذ أستاذًا لأهْلِ العِلْمِ والأدب". من هنا اضّطرارها للنظر إلى آثار الأوروبيّين العِلْميَّة والأدبيَّة والاجْتِماعيَّة نظرَ التِّلْميذِ إلى أستاذِه. ففرح يَسُرُّه أن يَذْهب بنَفْسِه "إلى وسطِ المدنيَّة الرَّاقيَة، [ويَغترِف] من منَبْعِ النَّهْرِ العظيمِ هُناك، بدل أن [يَنْتظِرَ] وصولَ مياهِه الجارِية" إلَيْه. و"نيويورك لا تَفضُلُها اليوم،[في رأْيه]، عاصِمةٌ من عواصِم العالَمِ المُتمَدِّن غَيْر لندن. فهي ثانيةُ عواصِم الدُّنْيا، ومُسْتَقْبلُها سيكونُ، في قَوْلِ بَعْضهم، أعْظم مُسْتَقْبلٍ لأعْظمِ مدينةٍ في العالَم".هنا يَظْهرُ لنا، بِوُضوحٍ كُلّيّ، الهدفُ الرئيسيّ الذي سعى إلَيْه فرح من خِلالِ الانْتِقالِ إلى أميركا. إنَّها المدنيَّة الغَرْبيَّة، التي قرأ عَنْها وعرفها قبل أن يراها ويعيشَها. "فبَعْد اخْتِبارِنا آثارَ مدنيَّةٍ "شَرْقيَّةٍ مَحْضة" في سوريا، وآثارَ مدنيَّةٍ "شَرْقيَّةٍ غربيَّة" في مِصْر، يسُرُّنا أنْ نَخْتَبرَ حالةً ثالثةً هي خَيْر الحالات، تَسُنُّ شرائعَها لنَفْسِها بنَفْسِها وتُطبِّقُها على حاجاتِها. وفي ظِلِّ هذِه الشرائع الحُرَّة السهلة العادِلة تَعْملُ في العمل والصِّناعة والتِّجارة والزِّراعة والسِّياسة أعمالًا تَحْسدُها عليْها سائرُ الأُممِ حتَّى أوروبّا نَفْسها"[٥].

---

١ مجلّة السيّدات والرجال، ملحق ١٩٢٣ ، ص١١٨.

٢ [صدر العدد الأوّل من مجلّة الجامعة في نيويورك في الأوّل من تمّوز عام ١٩٠٦، على ما ذكرنا سابقًا، وكانت مجلّة نصف شهريّة. أمّا "الجامعة اليوميّة" فصدرت في الأوّل من كانون الثاني ١٩٠٧: مجلّة الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٤٢٦. وكان أنطون قد أعلن عن موعد صدورها في الجزء التاسع من الجامعة في سنتها الخامسة الصادر في ١٦ تشرين الثاني ١٩٠٦، ص ٣٥٩، على أنّ يكون موعد صدورها اليوميّ "بين الظهر والساعة الواحدة بعده"، ويعاونه في التحرير "نقولا أفندي حدّاد المشهورة آثاره الأدبيّة بين كتّاب مصر والشام"، على أن تتولّى شقيقته "المدموزال روزا أنطون القادمة إلى نيويورك في هذا الشهر المباحث العائليّة والنسائيّة في الجريدة". أمّا شريكه في إنشاء "الجامعة اليوميّة" فصديقه "رشيد أفندي سمعان، التاجر في نيويورك". وثمّة تطوّر آخر ذكره أنطون في هذا الإعلان، وهو المتعلّق بعزمه إصدار الجامعة مرّة في الشهر. وللمزيد من التفاصيل حول ذلك كلّه تُراجَع: مجلّة الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٣٥٩– ٣٦٢، وص ٣٩٢– ٣٩٣. أمّا "جريدة الجامعة"، الجريدة السياسيّة التجاريّة الإخباريّة، فتصدر "كلّ أسبوع في ثماني صفحات كبرى طافحة بالمباحث المفيدة للطلّاب": الجامعة، السنة السادسة والسابعة، ١٩٠٨– ١٩١٠، ص ٥٦].

٣ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٢٣، ٢٧.

٤ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٢٤.

٥ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٢٤– ٢٥.

سياحة صاحب "الجامعة"

اصطحبَت "الجامعة" قُرَّاءَها وسافرَت بهم على صفحاتِها، وكأنَّ فرح أنطون، شأن الفَيلسوف الوَضْعِي "كونت"، رَغِبَ في أن يُعْلِمَ مُعاصِريه والأجيال القادِمة بكُلِّ ما يتعلَّقُ بحياتِه، ممّا يُفْسِحُ لنا المجالَ، في الوَقْتِ الحاضِر، في إعطاء تَفْسيرٍ للأحداث المُخْتلِفة التي حصلَت له في حياته.

يقول فرح عن سياحته: "لقد شاهَدْتُ في سِياحتي، من الإسكندريَّة إلى نيويورك، مشاهِد عظيمة، ورأيْتُ أُمورًا بديعة. وخطرَت لي في أثنائها، أفكارٌ كثيرة". وكانت المَحطَّةُ الأولى مَرْفأ مرسيليا، وفيها شاهَدَ "المَعْرضَ الاسْتِعماريّ العامّ، والأقسامَ المراكشيَّة والجزائريَّة، والتونسيَّة فيه". ثُمَّ زار"باريس وليون وغرونوبل وشمبيري وفالانسوكيلوس، وحمّامات إكس. وقد [قطَعَ] مُقاطعة السافوي البديعة التي هي دُرَّةٌ في عقدِ البلادِ الفرَنْسويَّة [...، ومرَّ] بَيْن مضائق جبال الألب البديعة وسط تساقُطِ المطر ولَذعِ البَرْد وخريرِ الأنْهار وصفيرِ البُخار.

[فكان] في القِطارِ كالمأخوذِ، [يتنقَّل] من نافِذة إلى نافِذة، [هو يقولُ]: هذِه جَنَّة اللّه في الأرْض، أمَّا باريس فحدِّث عَنْها ولا حرج"[1].

اسْتغرقت سِياحتُه نَحْو شَهْر، وأفادَ مِنْها اجْتِماعيًّا وطبيعيًّا وأدبيًّا، وأهمّ ما تخلَّلَها، زيارة البَلْدة التي أقام فيها جان جاك روسّو، والتي تَبْعُد ٥٩٢ كيلو مترًا عن باريس. وكان فرح قد أُولِعَ، في فترةِ الشباب، بمُطالعةِ كُتب روسّو ولعًا شديدًا[2]. كما يَذْكر فرح أنَّه، مُنْذ وطأت قدماه البَلدة، شمبيري، بدأ يحسُّ بحُمّى جان جاك روسّو تَسْري في مفاصِله: "وأمام باب الدخول شاهد بلاطةً نُقشت عليها الأبيات التالية:

"يا بيتًا سكنه جان جاك
إنَّك لتذكِّرني روحَه العظيمة
ووحدتَه وكبرياءه ومصائبَه وجُنونَه
فإنَّه اجترأ على أن يَجْعل حياتَه
وَقْفًا للمَجْد والحقيقة
ولذلك كان تارةً يَضْطهده الناس حسدًا
وتارةً هو نَفْسه يَضْطهد نَفْسه"[3].

---

١ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٣٥.

٢ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٣٦.

٣ هذه الأبيات هي من ترجمة فرح نفسه، وقد وردت في الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٤٣، حاشية رقم ١. أمّا نصّها في الفرنسيّة فهو منشور في متن الصفحة ذاتها من العدد ذاته من الجامعة، وهو التالي:

Réduit par Jean-Jacques habité
Tu me rappelles son génie
Sa solitude, Sa fierté
Et ses malheurs et sa folie
A la gloire, à la vérité
il osa consacrer sa vie

وعند عتبةِ البَيْتِ خاطبَ روسو قائلًا: "جان جاك! جان جاك! هوَّذا شَخْصٌ من ألف أو من مليون أضرَّته مبادئُك وجاء يَشْكو ضررّه لك. منذ خمس عشرة سنة كنت أتمنّى زيارتك وهاءَنذا في بيتك. ولا تَسَلْني هل هذه الزيارة زيارة تثبيت أم زيارة وداع، فإنّني جئْتُك ضجِرًا تعِبًا من خِدْمةٍ لا يَجْني صاحِبُها إذا أخلصَ النيَّةَ فيها سِوى الاضطهاد والعُدْوان"[١].

ترى، أهي خَيْبة أمَلٍ من مِهْنةٍ جعلَتْه مَصْدومًا وتعيسا؟ لِماذا هنا في فرنسا وأمامَ حضور روسّو الرَّوحِي، إذا أمكنَ القَوْل، يُعبِّر فرح بيَأسٍ عن مشاعِره؟ بل لماذا يَعْصر حياته أمامه؟ هل أنّ شَخْصيَّة الكاتِب الفرَنْسيّ، وأفكارَه، هُما المسْؤولان عن هذا الوَضْع الذي وصل إلَيْه؟ هل وعي فرح في تلك اللَحْظة انَّ الأفكار المُلْحِدة والثَّوريَّة أوصلَتْه إلى طريقٍ مَسْدود؟ أهي صَرْخة ضمير؟وماذا يأمَل بعد؟

إنَّ هذِه الصَّرْخة نَخْتَصِر، على لسان صاحِبها، النِّصْف الأوَّل من حياتِه الفِكْريَّة والعمليَّة والاجْتِماعيَّة. إنَّها، اذا أمكن القَول، تَقْويمٌ شَخْصِيّ لَه وبلسانِه[٢].

في أثناء إقامتِه في الدِّيار الفرَنْسيَّة كان من هُموم فرح أن يَدْرُس، بتَدْقيقٍ وإمعان، المسارِح، وأن يتعرَّف إلى المُمثِّلين والفنَّنين المَسْرحيّين، وهو الأديب الذي عَمِل في التَّأليف الرِّوائيّ للمَسْرح المصْرِيّ، ويَعْتَبر فنَّ التَّمْثيل "مقياسًا لتمدُّن الأمم ودليلًا على أدبها، لأنّ العناصر التي يتألَّف مِنها هذا الفنُّ هي سواد الأمَّة إن لم نقُل كلّها". فكانت أولى رغباتِه حضور تَمْثيليَّةٍ للفنَّانة "ساره برنار"(SARA BERNARD). لكنّه اضْطرَّ، نظرًا لغياب هذه المُمثِّلة خارج فرَنْسا، إلى حضورِ مَسْرحيَّةٍ أخرى، وهي "لا بيست"(LA PISTE) للمؤلِّفِ فيكتوريان ساردو (VICTORIEN SARDOU: 1831-1908). وقد أَوردَ، في عدد الجامعة الثالث الصادر في نيويورك في الأوّل من آب ١٩٠٦، تلخيصًا دقيقًا وشيّقًا لها، مسبوقًا بنبذة مختصرَة في مكانة المؤلّف الفنيّة، وفي شهرة الفرنسيّين وذوقهم الرفيع في مثل هذه الفنون[٣].

في مدينة نيويورك

عند وصولِه الولايات المُتَّحدة، واطِّلاعِه على حالةِ الرَّفاهيَّة التي يعيشُ فيها السوريُّون واللُّبْنانيُّون في هذِه البلاد، كان همُّه الأوَّل "كِتابة فُصول طويلة توقِفُ قُرَّاء مجلَّة الجامعة خارج أميركا على أحوال إخوانِهم فيها، وتُطْلِعُهم على ما يَجْهلونه من ارْتِقائهم". ولمَّا كان لَم يتسَنَّ لَه الوَقْتُ لاخْتِبار ما سيَكْتُبه في هذا المَوْضوع، عهدَ بهذا الأمْرِ إلى الشاعِرِ الزَّجلِي شبل ناصيف دمُّوس. وسيُشكِّلُ ما كُتِبَ في هذا المَوْضوع، على صفحات "الجامعة"، تاريخًا لحالة المغتربين الاجْتِماعيَّة[٤].

Et fut toujours persécuté

Ou par lui-même ou par l'envie

١ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٤٢. ويذكر أنطون، على الصفحة ٤٥ من مجلّة الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، أنّه قضى في شمبيري أربعة أيّام زار "خلالها الأحراش والحقول حول [بيت روسّو، وقرأ] للمرّة الثانية في ظلّ أشجارها الظليلة ما كتبه روسّو عن تاريخ حياته وإقامته في تلك الجهات".

٢ يَذْكُر فرح، في ما يذكر، بأنّه بعد زيارته بيت روسّو، طلب سجّل المكان ليقرأ فيه أسماء الزائرين وما كتبوه، فوجد فيه توقيعَين بالعربيّة، "أحدهما قريب لسعادة بطرس باشا غالي ناظر الخارجيّة في مصر" [الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٤٣– ٤٤، والحاشية رقم ٢ على الصفحة ٤٤].

٣ يُراجَع نصّ هذا التلخيص، والنبذة التي تسبقه، في مجلّة الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص١٣٠– ١٣١.

٤ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص٥٤ وما يليها.

في اليَوْم الثَّاني من وُصولِه مدينة نيويورك بدأ فرح النُّزهات في المدينة الجبَّارة، فسار"في شارعِ برودواي من نمرة ٣٩ حتّى البوسطة العُموميَّة، وهي مسافةٌ لا تتجاوزُ عشرين دقيقةً"، وقد رأى، "في هذِه المسافةِ القريبة، ثلاثة أُمور"كان يتعب في اسْتِخْراجِها"من بُطون المجلاَّت والجرائد: أوَّلًا النَّقْش بالكَهْربائيَّة، وثانيًا ارْتِفاع أسعار الأراضي بالنِّسْبة إلى البُلْدان الشَّرْقيَّة، وثالِثًا إحدى الوسائل المُضْحِكة في الدِّعاية"[١].

تِذْكار صُدور الجِزْء الأوَّل من "الجامعة" في نيويورك

تمَّ الاحْتِفال بذِكْرى صُدورِ الجِزْء الأوَّل من "الجامعة" في مَنْزِل الشاعِر أسعد رُسْتُم، الذي دعا في هذِه المناسبة إلى مأدُبةٍ جمعَت "بضعةً من أهلِ الفضل والأدب وسيّداتهم"، وكان عددهم سبعة عشر شخصًا. وقد أُلْقيَت على المائدة خُطَب عِدَّة. ورَدَّ فرح، مثنيًا على الخُطباء "الذين ألبسوه من فصاحتهم ثوبًا أوسعَ منه"، ثمّ اختار مخاطبة المدعوّين "باللغة المصريّة"، وأشارَ إلى "أنَّه من المأمولِ أن تكونَ "الجامعة" في أميركا سَقْفًا للجرائد العربيّة، وداعيَةً إلى الألفة والوداد بَيْن الطَّوائف المخْتلفَة، وستَجْهد بما في إمكانِها لِتَحْقيقِ هذا الأمل"[٢].

لقد تطوَّرَت مشاعِرُ فرح تِجاه الغَرْبِ، وتبنَّى بسرعةٍ كبيرةٍ نمطَ الحياةِ الأميركيَّة، وطابَت له الإقامة في أرضِ الضَّوْضاء والعمل والحُرِّيَّة، فأصْبحَت ذِكْرى الشرقِ في عَقْلِه ذِكْرى بَغيضة: إنَّها "بلادٌ تموتُ فيها المواهِب وتُحَالُ العزائم، ويدوسُ الحسدُ كُلَّ عاطِفةٍ كريمةٍ، ويَقْتلُ الصَّديقُ صديقَه بيدِه، ويسودُ الجَهْلُ والجُهَّالُ بما لدَيْهم من المالِ على أهْلِ الفَضْلِ والعِلْم"[٣]. هذا الإحساس الذي أعلن عنه فرح، يَوْم صُدورِ الجِزْءِ الأوَّل من مجلَّة الجامعة في مدينة نيويورك، كان بعد انتقالها من مصر بعامَيْن.

أثرُ مدرسة كِفْتِين في حياةِ فرح المُغْترب

من المؤثِّرات ما يَبْقى أبدًا في عَقْلِ الإنسان فلا يَمْحوه الزَّمن، ولعَلَّ أنفذها إلى قَلْبِ المَرْء تِلْك التي تَحْصُلُ لَه في طَوْرِ الطُّفولة والمُراهقة. أمَّا بالنِّسْبةِ لفرح فقد [عاوَدَه الحنين إلى تلك الأطوار من حياته وهو في ذروة نشاطه في مدينة نيويورك، فكتبَ مقالًا في الجامعة تحت عنوان "تذكارات مصر والشام" أودعَه أصدق ما في قلبه وعقله من مشاعر تجاهها. ولقد خصّ فيه مدرسةِ كِفْتين في الكورة بأجلّ الثناء وأكثره صدقًا لما تركته في نفسه من أثر] لا يُمحى. كان اسم هذِه المدرسةِ أحبَّ الأسماء على قَلْبه من أسماء كُلِّ المدارس، بل كانت مِثالًا يُحْتَذى. [لذلك أطلق صرخته المدوّية في استفهامه التأكيديّ المعبّر]: "أفلا يَحْتاجُ اليَوْم أخوانُنا السوريُّون في الوِلايات المُتَّحدة إلى مَدْرسةٍ كهذِه؟"[٤].

---

١ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٦٢– ٦٣.

٢ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٧٥– ٧٦. [إنّ العنوان المدرَج أعلاه هو عنوان مقالة لأنطون نشرها على هاتين الصفحتَين، وهو يورِد فيهما تفاصيل كثيرة حول هذا الاحتفال، فيذكر عدد المدعوّين وأسماءهم، ويسمّي الخطباء، ويصف أحوال المهاجرين، إلى غير ذلك ممّا تتضمنّه المقالة].

٣ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص٨٤– ٨٥.

٤ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٨٢. [ومقال "تذكارات مصر والشام" منشور في الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٧٧– ٨٥ والصفحات ٨١– ٨٣ منه مُخصَّصة لمدرسة كِفْتِين].

مضى عَهْدٌ من شبابه، ومرَّت علَيْه أحداث وأحداث، وبقِي ذِكْرُها في قَلْبه: "فإنَّ جمال كِفْتين الطَّبيعيّ وأيَّام الدِّراسة والتَّلْمذة، وتاريخ كِفْتين نَفْسها، كُلّ ذلِك أبْقَيتُ الكلامَ فيه إلى حينِه، وسيكونُ فاتِحة تاريخ حياتي متى كتَبْته. وإنَّما الأثرُ الذي أشرْتُ إلَيْه أثرٌ أدبِيّ لم يَبْرَح نفْسِي قَطّ، ولعلَّه كان ذا تأثيرٍ على أفكاري في كُلِّ حياتي، أُريدُ بهذا الأثرِ صَبغة المِدْرسة الدينيّة"[1]. وقد لاحظَ فرح أنَّ اللُّغة الفرَنْسيَّة في أميركا، التي صرَف عُمْرَه في دَرْسِها وقِراءة مؤلَّفاتِها، لا تُفيدُه شَيْئًا هُناك. وكذلِك الرُّوسيَّة التي تُدَرَّس في جميعِ المدارس السوريَّة الأرثوذُكسيَّة دون الإنكليزيَّة والفرَنْسيَّة: "بوُدِّنا لو انْتبهَت الجَمْعيَّة الكريمةُ التي تُديرُ هذه المدارِس إلى هذا الأمر، وجعلَت اللُّغة الإنكليزيَّة بَعْد العربيَّة فيها"[2].

مشروع "الجامعة" الزِّراعيّ– الاجْتِماعيّ في بلاد الاغتِراب

اتَّخذَ فرح قاعِدةً مُطْلقةً وهي الصدق، وجعلَ منه هذا الصدق الذي التزمَ به في حياته إنسانًا غَيْر تَقْليدِيّ. ولو قُدِّر له تأدية دَوْرٍ على مَسْرحِ السِّياسة، لكان مِن ألمعِ السياسيِّين وأفضلِهم بفَضْلِ الْتِزامِه الصَّادِق بالمبادئ الإنسانيّة الصَّحيحة، ويَشْهَدُ على ذلِك سَعْيُه لِمَشْروعِ تَسْهيلِ الزِّراعة، وبَيْعِ المَزارع للبنانيّين والسوريّين في كندا.

وفي سبيل تحقيق مشروعه هذا، قصد فرح مدينة "أتاوى" عاصِمة كندا لمُقابلةِ وزير الدَّاخليَّة هناك، ومُباحثتِه في أمْرِ إعْطاء المُغتربين من الجنسيّة السُّورية، والجنسيّة اللُّبْنانيّة بصورةٍ خاصّة، بعض الأراضي الزِراعيَّة مجّانًا. وقد نجح في مَسْعاه هذا كلّ النّجاح، وكان قد بلَغَ ذُرْوةَ حماستِه للعملِ الزِّراعِي بَعْد رؤْيته "العَمَلَة السُّوريين يؤجِّرون أبداتَهم وقِواهم لِمَن يَبْتزّها ابْتِزازًا ويُفْنيها تَدْريجيًا في جوّ المعامل المُشْبعِ غُبارًا وغازًا، ويُبْقيها أجيرةً له ما بقيَت لها من الحياةِ بقيَّةً مَحْرومةً اسْتِقلالًا واعْتِزازًا. ورأينا التَّاجِر المُتَسكِّع في تِجارتِه تسكُّعًا في نيويورك والداخليّة يصِرّ بعناد عجيب وصبر غريب على التجارة ببضائع أصبح التعب فيها ضائعًا أو كالضائع. وهو يَسْتَقْرِضُها ويُقْرِضُها وحين الاسْتِحقاق يَعْلمُ أنَّ ما علَيْه مُعجَّل وأنَّ ما لَه مؤجّل". وبعد أن رأى أيْضًا الأميركيّين مُصابين بجُنونِ الانجذاب إلى المدن، وأنَّ الاتِّجاهَ لدى المغتَربين أصْبحَ لجِهَّةِ الزِّراعة، وقد بدأ اسْتِئجارُهم للمزارع لاسْتِثمارِها[3].

وقد أوْردَت "الجامعة" تفاصيلَ المفاوضات مع وزيرِ الدَّاخليّة الكنديَّة، وشُروطَ إعطاء الأرْض للمُغْتربين، والتَّعْليمات اللازِمة للرَّاغبين في الزِّراعة[4].

وعلَّقَت "المقْتطف" على هذا المَوْضوع، فرأت أنّه بَعْد حُصولِ الأُمّة العُثْمانيّة على الحُكومةِ الدُّسْتوريّة، من الأفْضل تَشْجيع المُغْتربين على العَوْدةِ إلى بلادِهم لِتَعْميرِها[5]. وكان للجامِعة رَدٌّ في هذا الموضوع، فنَّدت فيه منافِع الزِّراعةِ في البلاد العُثْمانيّة، ولكِنَّها فضَّلَت

١ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦–١٩٠٧، ص ٨١– ٨٢.

٢ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٨٣. وتجدر الإشارة إلى أنّه بعد ستة وثمانين سنة تقريبًا [هذا التاريخ: "ستّة وثمانين سنة تقريبًا" الذي أوردتْه المؤلّفة يتطابق وتاريخ الفترة الزمنيّة التي كانت تُعِدّ فيها أطروحتها، والتي أنجزتْها وناقشتها في العام ١٩٩٦] من مطالبة فرح إدراج اللغة الإنكليزيّة في المناهج المدرسيّة في وطنه، نرى اليوم هذه اللغة منتشرة في المدارس اللبنانيّة على اختلافها وأنواعها.

٣ الجامعة، السنة السادسة والسابعة، نيويورك، حزيران ١٩٠٨، ص ١٢٩– ١٣٠.

٤ [حول الاتّفاق بين حكومة كندا والجامعة بهذا الشأن تُراجَع: الجامعة، السنة السادسة والسابعة، ١٩٠٨– ١٩١٠، الجزء السابع، آب ١٩٠٨، ص ١٦٩– ١٧٦].

٥ [حول ردّ المقتطف هذا تُراجَع: الجامعة، السنة السادسة والسابعة، ١٩٠٨– ١٩١٠، الجزء التاسع، تشرين الأوّل ، ١٩٠٨، ص ٢٥٧– ٢٥٨.

علَيْها الزِّراعة في الوِلايات المتَّحِدة[١]. ومن جملة الأسباب التي تعلّلت بها أنّ "معيشةُ المُهاجرين هنا، في وسطٍ عظيمٍ راقٍ، يُمكِّنُهم من أن يَكْتَسِبوا اخْتباراته الزراعيَّة، ويَشْتَرِكوا في الارْتقاء الأدبيّ بعامل الاقتِداء والتَّشبُّه، إذا كانوا ممّن يُحْسِنون تَدْبيرَ نُفوسِهم والانْتِفاعَ بما حَوْلهم مِن مظاهِر الارْتقاء والعُمْران"[٢]. وسَرَتْ دَعْوةُ فرحَ المهاجرين إلى الزِّراعة وتَرْبية المواشي وامْتِلاك الأرْضِ سريان الكَهْرباء، وبدأ تَنْفيذُ الفِكْرةِ على نِطاقٍ واسِع، وانهالَت علَيْه كلِماتُ التَّمْجيدِ من مُخْتلفِ وجوهِ الجالية السوريَّة وأعيانها وفاعليَّاتها[٣]. في ذلك الحين، وصلت أنباءُ الانْقِلاب العُثْمانيّ المفاجئ، فسُرَّ فرح بها كثيرًا وأعلن غبطتَه برسالةٍ بعث بها إلى نسيبٍ له يقول فيها: "إنَّ سروري بهذ الانْقِلاب كان عظيمًا، حتَّى إنَّه مضى عليّ يَوْمان وأنا لا أنام من شدَّة التَّأثر. لقد حان الوقْت للعمل والنُّهوض بالأمم الشرقيّة، إذ اسْتَيقظت من سباتِها"[٤].

العَوْدة إلى مصر

كان الجزء العاشِر من السَّنة السَّادسة "للجامعة"، [الصادر في نيويورك في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٠٨]، آخر عدَدٍ يَصْدرُ لها في أميركا. وبصُدورِه تَنْتهي السَّنة السَّادِسة لهذه المجلَّة، وتبتدئ سنَتُها السَّابعة والأخيرة عام ١٩٠٩ في مِصْر، [في شهر كانون الأوّل (دسمبر) في مدينة القاهرة، تاريخ صدور العدد الأوّل منها بعد عودتها إلى مصر. يفتتح أنطون هذا العدد من مجلّته بمقالة قصيرة عنوانها "عودة الجامعة إلى مصر"، يحدّد فيها المدّة التي قضاها خارج مصر، والبالغة "أربع سنوات إلّا بعض سنة"[٥]، ويشرح أسباب التأخير في إصدار العدد الأوّل منها بعد العودة. وفي مقالة لاحقة من العدد ذاته، يستهلّ أنطون كلامه فيه] بتَقْويمٍ شِبْه إجمالي لهذِه الرِّحْلة: "قضَيْنا خارِج مِصْر نَحْو أربع سنوات جُلْنا في أنْحائها في ولاياتِ فرَنْسا أُمّ الحُريَّةِ والجُمْهوريَّة، وإيطاليا أُمّ الفُنون والجمال، وأميركا الشماليَّة بلاد العجائب والغرائب، وكندا مُلْتقى المدنيَّة الإنْكليزيَّة والفرَنْسويَّة. وسحنا مُدَّةَ أرْبعة أشْهُر في ١٢ ولاية مِن الولايات الأميركيَّة، فزُرْنا كثيرًا من مَكْتباتِها ومتاحِفها ومدارِسها وأنْديتِها ومعامِلها ومزارِعها ومناجِمها، ودرَسْنا شؤونَ بَعْض مدُنِها الكُبْرى والصُّغْرى دَرْسَ طالِبٍ يأخُذ العِلْمَ عن أُسْتاذٍ خبير، وراقَبْنا روحَ الشَّعبِ في المدُن والقُرى مُراقبةَ مُسْتفيدٍ حَليٍّ الذهنِ، يَدْرُس لِيَتعلّم لا ليتحكّم. ورأينا في الشوارع والأسواق والمعامل والمخازن– رأْيَ العِيان– تِلْكَ الاكْتِشافات والاخْتِراعات الحديثة التي نكدُّ الذهنَ ونُتعِبُ البصر والفِكْر لنَسْتَخْرِجَ أخْبارَها من المجلّات والجرائد ونَحْن جُلوسٌ في الشرقِ وراء الدّواةِ والقلم. وشاهَدْنا عظمتَها التِّجاريّة والصّناعيّة والزِّراعيّة التي لا تجترئ على مُنازعتِها فيها أُمَّةٌ من الأُمَم. وخدَمْنا في أثْناء ذلِك إخْوانَنا المهاجرين من الشرقِ إلى تِلْك البلادِ البعيدةِ الخِدْمةَ التي قَدِرْنا علَيْها، فصارَ أصْدِقاءُ الجامعة فيها يُعَدُّون بالمئات، وأصْبح اسْمُها بَيْنهم هُناك في كُلِّ شفةٍ وفَم"[٦].

بَعْدَ عَوْدتِه إلى مصر، [لم يكتفِ فرح بالتركيز على إصدار الجامعة، بل كانت له، فضلًا عن ذلك]، نشاطات سياسيّة وصحافيّة ومَسْرحيّة وثقافيّة. [وكان قد استهلّ نشاطه السياسيّ قبل أن وطأت قدماه أرض مصر]. فخلال رحلة العودة إليها التقى، في باريس،

١ الجامعة، السنة السادسة والسابعة، ١٩٠٨– ١٩١٠، الجزء التاسع، تشرين الأوّل ١٩٠٨، ص ٢٥٨– ٢٦٤.

٢ الجامعة، السنة السادسة والسابعة، ١٩٠٨– ١٩١٠، الجزء التاسع، تشرين الأوّل ١٩٠٨، ص ٢٦١.

٣ المصدر السابق، ص٢٧٧.

٤ ملحق مجلّة السّيدات والرجال، ١٩٢٣، ص١٣.

٥ [تُراجَع هذه المقالة في: الجامعة، ١٩٠٨– ١٩١٠، السنة السابعة، الجزء الأوّل، كانون الأوّل ١٩٠٩، ص ١– ٢].

٦ الجامعة، ١٩٠٨– ١٩١٠، السنة السابعة، الجزء لأوّل، القاهرة، كانون الأوّل ، ١٩٠٩، ص ٦. [وعنوان المقالة الوارد فيها الاستشهاد "أسباب عظمة أميركا وما يجب أن نستفيده منها"، وهي منشورة في الجزء عينه من الجامعة، ص ٥– ١٩].

رئيسِ الحِزْبِ الوطنِيّ المِصْريّ محمّد فريد، خليفة مصطفى كامل مؤسّس الحزب، ثُمّ انضمّ لاحِقًا إلى الحركةِ الوطنيّةِ بصورةٍ رَسْميّة. [وفي باريس "طرأ" مرض على شقيقته روزا ألزمها الفراش خمسة أسابيع، ممّا أرغم فرح على البقاء في المدينة طوال هذه المدّة، وتسبَّب في تأخير وصوله إلى مصر[١]].

توقّف الجامعة عن الصدور[٢]

بعد عودته إلى مصر، لم يتمكّن فرح من إصدار الجامعة بُعَيْدَ وصوله كما كان وعد قرّاءَه "في العدد الأخير الذي صدر منها عن نيويورك قبل [سفره] منها بشهر وفيه خبر انتقالها"[٣]. فتأخّر موعد صدورها فترة سنة كاملة، إذ صدر الجزء الأوّل منها في كانون الأوّل

١٩٠٩، كما أشرنا سابقًا. وفي الشهر التالي، كانون الثاني من السنة الجديدة ١٩١٠، صدر الجزء الثاني. وبعد صدور هذا الجزء اضطرّ أنطون إلى إيقافها، فتوقّفت بذلك نهائيًّا بعد أن استمرّت سبع سنوات[٤].

بعد توقُّف الجامعة عن الصدور، سَرَتْ تأويلات كثيرة حول أسباب توقُّفها. ففي حين رجّح البعض أن يكون سبب ذلك رغبة منشئها في التفرُّغ لكتابة المسرحيّات لأنّ عائدات الأخيرة أكثر بما لا يُقاس، رجّحت "الهلال" الأسباب الماليّة. لكنّ شقيقته روزا ردّت على "الهلال" نافية أن تكون الأسباب ماليّة، لأنّه لو أراد المال لحصل عليه من بابه، كما يفعل آخرون غيره من أرباب الصُّنعَة. وفي هذا تلميح منها إلى الأموال التي كان يحصل عليها صحافيّون آخرون من خزينة الدولة، أو من أصحاب النفوذ، أو من الدوائر السياسيّة والدبلوماسيّة، وغيرها. لكنّ روزا لم تُفْصِح عن السبب الحقيقيّ، مكتفيةً بالقول إنّ الإقفال هو مؤقَّت، ويعود إلى غرض نبيل سامٍ لم تذكره، واعِدةً بذكره في الوقت الملائم[٥]. والسؤال الذي ينبغي طرحه، هنا، يتعلّق بمسار فرح أنطون الحياتيّ والفكريّ، وبالنشاط الذي مارسه بعد توقُّف الجامعة عن الصدور.

فرح أنطون بعد عهد الجامعة

ذكرنا في فقرة سابقة أنّ فرح التقى، في باريس، رئيس الحزب الوطنيّ المصريّ محمّد فريد. ونضيف هنا أنّهما اتّفقا، في جملة ما اتّفقا عليه، "أن يشارك فور عودته في تحرير صحف الحزب". ولقد شارك بالفعل في تحرير "البلاغ المصري"، و"اللواء"، و"مصر الفتاة" و"مصر" و"الوطن". وفي جميع هذه الجرائد التي حرّر فيها لم يَحِدْ– على ما ذكر لطفي جمعه في خطابه في حفل تأبينه– عن مذهبه، ولم يتغيّر رأيه ساعة، بل كان يكتب "باعتقاد وإخلاص"، وينصر "الحقّ أنّى كان". ويضيف جمعه، في خطابه هذا، مخاطِبًا المؤبِّن:

---

١ [الجامعة، السنة السادسة والسابعة، ١٩٠٨– ١٩١٠، الجزء الأوّل، القاهرة، كانون الأوّل، ١٩٠٩، ص ١].

٢ مع بلوغنا هذه المرحلة من سيرة فرح أنطون سنعتمد مراجع أخرى عديدة، وسنشير إليها في الحواشي، من غير الاكتفاء فقط بأطروحة بلانش فيكاني، كما فعلنا في المراحل السابقة من سيرة الرجل.

٣ [الجامعة، السنة السادسة والسابعة، ١٩٠٨– ١٩١٠، القاهرة، الجزء الأوّل، كانون الأوّل ١٩٠٩، ص ١. وفي الحاشية رقم ١ على الصفحة ٣ من جزء الجامعة ذاته، يعيّن فرح اسم الباخرة التي أقلّته ذهابًا إلى نيويورك (لاتورين)، وتلك التي أقلّته إيابًا (لالورين)].

٤ صدرت في الإسكندريّة في الأوّل من نيسان ١٨٩٩ حتّى نهاية السنة الرابعة في ١٩٠٤، ثمّ عادت إلى الصدور في نيويورك في أوّل تمّوز ١٩٠٦ واستمرّت حتّى تشرين الثاني ١٩٠٨، ثمّ بعد عودتها إلى مصر، عاودت الصدور في القاهرة عوض الإسكندريّة، وصدر منها جزءان فقط: الأوّل في كانون الأوّل ١٩٠٩ ويحمل على غلافه، فوق اسم الجامعة، شعار النسر الأميركيّ؛ والثاني في كانون الثاني ١٩١٠، وبقي النسر الأميركيّ يتصدّر الغلاف فوق اسم **الجامعة**.

٥ الخوري، وليد كميل، **البعد المسيحيّ الاجتماعيّ في فكر فرح أنطون**، مرجع سابق، ص ٢٠– ٢١.

"فانتصرْتَ لنا ولمبادئنا الوطنيّة في أحرج مواقفنا، وانتصرْتَ للعمّال في إضرابهم، وانتصرْتَ للشعب على السلطة، وللحقّ على القوّة، وللمحكومين على الحاكِم المستبِدّ"[١].

لقد كان فرحم تفرّغًا، حتّى هذه المرحلة من حياته، للجامعة ولمؤلّفاته الباقية، ينشر من خلالهما- بتكرُّس وتفانٍ والتزام- مبادئه الفلسفيّة الإصلاحيّة في التربية والسياسة والاجتماع والاقتصاد والمدنيّة. لكنّه دخل، في هذه الفترة، ميدان الممارسة السياسيّة من بابه الواسع. وكان "يتأجج حماسةً، ووطنيّةً، ورغبةً في النضال [...] والدفاع عن مصالح الشعب". وكان بِجِبِلَّته مفطورًا على عدم الممالأة والمهادَنة والمساوَمة. ولقد "بلغت مقالاته، في هذه الفترة، درجة عالية من العنف، والتصدّي لسياسات السلطة". لذلك تسبَّبت في إقفال عدد كبير من الصحف. ومشهورة افتتاحيّته الوحيدة التي كتبها في صحيفة "مصر الفتاة"، نيابة عن رئيس تحريرها-صديقه توحيد بك السلحدار- أثناء مرضه، وتسبَّبت في إغلاقها من قِبَل "وزارة سعيد باشا بغير سابق إنذار"[٢].

لقد شارك فرح في تحرير العديد من الصحف، "وكثيرًا ما كان يشتغل في جريدتين في وقت واحد. فقد اشتغل في "اللواء" و"مصر الفتاة" معًا. وفي "اللواء" و"البلاغ المصري" أيضًا"[٣]. "ولمّا اشتدّت الحركة الوطنيّة المصريّة" في نضالها، "وقفَ في صفّ المجاهدين، وانضمّ إلى صديقه الحميم الأستاذ الصحافيّ الكبير عبد القادر أفندي حمزه، ومعهما الكاتب الصحافيّ المشهور أحمد أفندي حافظ عوض في تحرير "الأهالي"[٤]. وله مساهمة قيّمة، ولفترات زمنيّة متقطّعة وطويلة نسبيًّا، في تحرير "المحروسة"، التي "لمّا أُوقِفَت للمرّة الثالثة في أوائل ١٩٢٢ كان يشترك في تحريرها"، فضلًا عن أنّه كان قد ترأّس "تحريرها قبل ذلك سنة ١٩١٤ [...] عامًا ونصف عام تقريبًا"[٥]. وكثيرة هي الافتتاحيّات التي كتبها فيهما، ووقّعها بالحرف الأوّل من اسمه والحرف الثاني من اسم عائلته: ف. أ.، أو بالحرفيَن الأوّليَن من اسمه ومن اسم عائلته: فران. ولقد بلغت وطأة مقالاته على السلطة مبلغًا شديدًا، فضيّقَت على "المحروسة"، وأنذرتْها بالإغلاق، ممّا دفع بعبد القادر حمزه أن يطلب منه ترك الكتابة في السياسة الداخليّة أيّامًا ريثما تهدأ الأمور، والانصراف إلى الكتابة في السياسة الخارجيّة، فماكان من أنطون إلّا أن أبدى امتعاضه[٦].

وحول ما عاناه أنطون من عسف السلطة بسبب كتاباته في الصحف المصريّة في شأن الحركة الوطنيّة، يروي صهره نقولا الحدّاد أنّ موظّفًا قريبًا من سلطات الاحتلال ذكر أمامه أنّ أنطون قد يتعرّض للنفي، كما حصل لأصحاب "البلاغ المصريّ"، ما لم يعتدل في التعبير عن آرائه. ويتابع نقولا الحدّاد روايته، فيذكر أنّ ذاك الموظّف لم يلبث أن قام باستدعائه، وأنذره وجاهةً الإنذار نفسه. لكنّ أنطون أبى ولم يمتثِل، واستمرّ في نهجه إيّاه، ممّا تسبَّب بإقفال جرائد ثلاث على التوالي[٧].

---

١ المرجع نفسه، ص ١٨.

٢ الخوري، وليد، **البعد المسيحيّ الاجتماعيّ في فكر فرح أنطون**، مرجع سابق، ص ١٨- ١٩.

٣ الحدّاد، نقولا، "ترجمة الفقيد فرح أنطون صاحب الجامعة، في مجلّة السيّدات والرجال، السنة الثالثة، يوليو (تمّوز) ١٩٢٢، ص ٥٧٠.

٤ المرجع نفسه، ص ٥٦٨.

٥ جحا، ميشال، **فرح أنطون**، الطبعة الأولى، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، ١٩٩٨، ص ٣٥: نقلًا عن **مجلّة السيّدات والرجال**، ملحق السنة الرابعة، مصر، مطبعة يوسف كوى، أيلول ١٩٢٣، ص ١١٥- ١١٦ (هاتان الصفحتان من الملحق، اللتان استشهد بهما جحا، تتضمّنان رثاء مي زيادة لفرح أنطون). والمحروسة صحيفة أنشأها سليم النقّاش في الإسكندريّة، بين العامَين" ١٨٨٠- ١٨٨٦. انتقلت إلى القاهرة حين صارت في عهدة الياس زيادة والد مي زيادة: جحا، ميشال، **فرح** أنطون، مرجع سابق، ص ٣٦، حاشية ١٣.

٦ الخوري، وليد كميل، **البعد المسيحيّ الاجتماعيّ في فكر فرح أنطون**، مرجع سابق، ص ١٩.

٧ المرجع نفسه، ص ٢٠.

واستمرّ فرح يحرّر في الصحف المصريّة، واستقرّ أخيرًا في "الأهالي" يكتب فيها بجرأة ولا يهادِن، فأقفلتها السلطات مدّة ستّة أشهر."ولمّا توقّفَت الأهالي طُلِب لتحرير جريدة تُنْشَأُ إلى جنب جريدة البورص الفرنساويّة".وحين سأل عن سياسة هذه الجريدة قيل "له إنّها وزاريّة [أي حكوميّة مناوئة للحزب الوطنيّ]. فقال إنّ الاتّفاق معه على تحريرها مستحيل. فقيل له إنّه غير مُلْزَم أن يوقّع على كتاباته. فقال إنّ كتابات الإنسان هي شخصيّته"[١]. وخلال فترة توقُّف "الأهالي" حلّت "المحروسة" في الصدور محلّها. وبعد انقضاء الأشهر الستّة هذه، عاودت "الأهالي" الصدور، فكتب فيها مقالًا تحت عنوان: "بين الإقفال والفتح"، عرض فيه المضايقات التي تعرَّضت لها الصحافة على يد السلطات. ولم يصدر من "الأهالي" سوى عددَين بعد معاودتها الصدور، وأُقفلَتْ في اليوم الثالث. وبعد فترة لقيَت "المحروسة" المصير نفسه[٢]. والجدير ذكره، هنا، أنّ توقيف "المحروسة"، في هذه المرّة، أوائل العام ١٩٢٢، كان يحصل للمرّة الثالثة، على ما ذكرنا في الصفحة السابقة.

بعد توقُّف الجامعة النهائيّ عن الصدور، وانصراف أنطون إلى التحرير في صحف الحزب الوطنيّ وغيرها من الصحف، شهدت مصر سنوات قاتمة في تاريخها، إذ فُرِضَتْ عليها الحماية البريطانيّة التي سعَتْ إلى إسكات الأصوات المُعارِضة. فأُغْلِقَت صحف الحزب، وهاجر قادته إلى الخارج. وإزاء هذا المُناخ من التضييق على حَمَلة الأقلام، والتعدّي على الحرّيّات وحقوق الإنسان، رأى أنطون أنّه لا بدّ من تجريب تجربة جديدة تتلخّص في فعلِ ما يفعله الجيش متى تحصّن عدوّه في بقعة معيّنة. إنّه يقوم بما يسمّونه "حركة التفاف"، فيأتي إليه من الجهة الأخرى. ولقد لجأ بالفعل إلى حركة التفاف، فوضع "كراريس"، وألّف "روايات تمثيليّة عن سكّان جزيرة الواق واق"، مُوقِنًا أنّ "الشعب ذكيّ يفهم"[٣]. بهذا التوجّه، ورغبة منه في تغيير التكتيك والإبقاء على الاستراتيجيّة، قام أنطون بحركة التفاف، وتوجّه إلى كتابة "الروايات التمثيليّة" أي المسرحيّات. وفي الحقيقة فإنّ هذا المجال ليس جديدًا عليه، إذ كانت له تجارب سابقة قبل رحيله إلى الولايات المتّحدة، نذكر منها "رواية ابن الشعب" التي أخذها منه الشيخ سلامه حجازي ومثّلها جوقه "في ملعبه في القاهرة وملعب زيزينيا في الإسكندريّة قبل" سفر أنطون من الإسكندريّة[٤]. لقد قدّم أنطون للمسرح، خلال هذه الفترة، روايات مسرحيّة عديدة، بعضها مُترجَم، وبعضها مُقتبَس، وبعضها الأخير من تأليفه. "ولكِنّ التّضْييقَ على حُرّيَّةِ القلمِ والكلامِ تطرّقَ إلى دُوْرِ التّمْثيلِ أيضًا في ذلِك الحين. فما قدَّمَ فرح رِوايةً إلى المِسْرح، حتّى وجدَت من مُراقبةِ المطْبوعاتِ عقبات في سبيلِها، فضاقَ ذرعُه، وحدثَ حينئذٍ بَيْنه وبَيْن قلمِ المطْبوعاتِ والمُحافَظة نِزاعٌ عنيف قال لَهُم فيه: "إنّ النَّفْي أصبحَ أسهل احْتِمالًا من هذِه المُضايقة، التي كَيْفما حوّلْنا وجْهَنا الْتقَيْنا بها"[٥].

وتتفاوت الآراء كثيرًا في تجربة فرح المسرحيّة هذه. فمارون عبّود، مثلًا، يرى أنّ "الحاجة قد حوّلته عن مجراه إلى مسرحيّ سطحيّ يكتب ليعيش"[٦]. ويصف هذا الطور من حياته بـ"طور المعاش"[١]. ويرى العقّاد أنّه (فرح أنطون) لما "طُلِب إليه، وهو بين اليأس والرجاء،

١ الحدّاد، نقولا، "ترجمة الفقيد فرح أنطون صاحب الجامعة" في مجلّة السيّدات والرجال، الجزء التاسع، تمّوز ١٩٢٢، ص ٥٦٩.

٢ الخوري، وليد كميل، **البعد المسيحيّ الاجتماعيّ في فكر فرح أنطون**، مرجع سابق، ص٢١- ٢٢.

٣ الخوري، وليد كميل، **البعد المسيحيّ الاجتماعيّ في فكر فرح أنطون**، مرجع سابق، ص ٢١- ٢٢.

٤ الجامعة، السنة الخامسة، ١٩٠٦- ١٩٠٧، ص ٦٤.

٥ الحدّاد،نقولا، ملحق مجلّة السيّدات والرجال، السنة الرابعة، عدد خاصّ، ص ١٣٣.

٦ عبّود، مارون، جُدُد وقدماء، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٤، ص ٢٠.

أن يُترجِم أو يكتب للمسرح فلبّى وبدأ بداءة حسنة، ولكنّه لم يُحقّق بغيته، ولم يصنع شيئًا يليق به أو يُضاف إلى محاسنه". ويتابع العقّاد عارضًا وجهة نظره، فيقول إنّه حضر "إحدى رواياته التلحينيّة أخيرًا، فما [أطاق] الصبر على أكثر من فصل منها، ولم [يرَ] في موضوعها، ولا في فنّها، ولا في غنائها، ولا في ممثّليها، ولا في الجمهور الذي يسمعها أثرًا لفرح أنطون الذي نعرفه، ولا علامة على ملكته السامية، ومكانته الأدبيّة". وهو يعتبر، فوق ذلك وأبعد من ذلك، أنّ تجربة أنطون هذه "زلّة"، ويأسف لها. لكنّ العقّاد لا يلبث أن يجد له عذرًا ربّما كان مناسبًا، ومفاده أنّه كان "يربح في الرواية الواحدة من هذه الروايات ما يعدل ربحه من جميع مؤلّفاته، ومترجَماته الصالحة"[٢]. وفي المعنى نفسه كتبت المجلّة المصريّة (La Revue Égyptienne)– الصادرة بالفرنسيّة– تقول: "وهو كاتب ذو شهرة في النهضة الفكريّة العربيّة، ولكن بدا منه هبوط غريب في سِنِي حياته الأخيرة"[٣]. أمّا المدافعون عن فرح، في هذا المجال، فيعتبرون أنّه قام

بـ"حركة التفاف"، ويستعيدون ما قاله في عبارته المشهورة: "نفعل ما يفعل الجيش إذا تحصَّن عدوّه من جهة فيأتي إليه من جهة أخرى"، معتبرِين ذلك مجرّد "حركة التفاف" لجأ إليها مفكّر مصمّم على رفع صوته في زمن مظلم.

صفحة العمر الأخيرة

استمرّ فرح أنطون في مسيرته الجهاديّة القلميّة فترةً تجاوزت الثلاثين سنة. وكان يُرهق نفسه كثيرًا في انصرافه الدائب إلى العمل على حساب صحّته. وكثيرًا ما نصحه الأطباء بضرورة التخفيف من مجهوداته، وتوفير قسط من الراحة لنفسه يمكّنه من تجديد نشاطه، ومن ثمّ المتابعة. وكان أنطون قد عانى، في مراحل سابقة من حياته، توعّكات صحّيّة أليمة أخصّها تلك التي ألمّت به قبل نحوٍ من عشرين سنة، وأجبرته على تأخير إصدار الجزء العاشر من الجامعة في سنتها الثانية، والصادر في الإسكندريّة عن كانون الثاني ونصف شباط سنة ١٩٠١[٤]. لكنّه لم يرفق بصحّته يومًا، إذ بلغ به انصرافه إلى العمل مبلغًا جعله يَصِلُ الليل بالنهار. وكثيرًا ما كان "يجلس لدى المكتب في الصباح، ولا يتركه حتّى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر، ولا يتناول غداءه إلّا مساءً". وبعد تناولِ العشاء كان أحيانًا "يعمد إلى القلم فلا يتركه حتّى الصباح. ولذلك اعتلّت معدته، وقاسى من آلامها حتّى اتّصلت العلّة بالقلب. ومع ذلك لم يكن المرض ليقف في سبيل قيامه بالواجب. فكان الشغل عنده أوّلًا والصحّة ثانيًا. وما كفَّ عن هذا التهوُّر إلّا لـمّا لم يَعُدْ يستطيع الخروج منذ شهرين قبل وفاته"[٥]. وفي الفترة التي كانت فيها الأهالي متوقّفة عن الصدور، "لم يشأ أن يتقاعدَ كسلًا" على الرغم من أنّ وضعه الصحّيّ كان يقتضي منه الراحة التامّة. "لكنّه أشغلَ نفسه في تفنيد البلاغ الطويل الذي أُعلن فيه استقلال مصر. فخرج ذلك التفنيد من تحت قلمه كتابًا مفصَّلًا مشتمِلًا على كلّ حُجَّة تُقال بهذا الموضوع. ولكنّ الظروف السياسيّة حالت دون نشر هذا الكتاب، كما حالت دون نشر غيره من كتابات المجاهدين"[٦].

---

١ عبّود، مارون، "فرح أنطون" في **روّاد النهضة الحديثة**، طبعة جديدة، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٧، ص ٢٦٣. أمّا الطور الذي سبقه فيطلق عليه عبّود، في الموضع نفسه، تسمية "طور الفنّ للفنّ".

٢ العقّاد، عبّاس محمود، "فرح أنطون" في **مطالعات في الكتب والحياة**، صيدا– بيروت، منشورات المكتبة العصريّة، [د. ت.]، ص ٥٧.

٣ ملحق مجلّة السيّدات والرجال، السنة الرابعة، ١٩٢٣، ١١٨.

٤ تُراجَع الجامعة، السنة الثانية، ١٩٠١– ١٩٠٢، ص ٦٤٤– ٦٤٦، حيث يتطرّق فرح إلى "الأسباب الصحيّة"، وغيرها من الأسباب التي حالت دون صدور هذا الجزء في التوقيت المعهود لصدور أجزاء المجلّة.

٥ الحدّاد، نقولا، "ترجمة الفقيد فرح أنطون صاحب الجامعة" في مجلّة السيّدات، الجزء التاسع، تمّوز ١٩٢٢، ص ٥٧٠.

٦ المرجع نفسه.

وبقيَ فرح "يُحالِد الأيّام، ويُناهِض الأسقام، ويسخر بالآلام، وهو بين المحابر والأقلام"، إلى أن "تداعى البنيان، وتزلزلَ الجنان، وارتخت عضلات الفؤاد، وتلاشت القوى في الجهاد"[١]. وبلغ من تداعي صحّته من ناحية، وانصرافه إلى العمل المضني من ناحية ثانية، أن "أُعيد من إدارة جريدة "الأهالي" محمولًا إلى البيت، إثر إغماء أصابه، بسبب الإجهاد وشدّة ضعفه ومعاناته من المرض في معدته وقلبه"[٢]. فحتّم الأطبّاء عليه وجوب الامتناع عن "كلّ سعي أوعمل أو عناء". فانصاع لذلك "التحتيم" ولازم مخدعه رغمًا عنه، وهو لم يَعُدْ في الواقع يقوى على الخروج. لكنّ انصياعه المُرغَم هذا جاء متأخّرًا، ولم ينفعه في شيء، و"أصبح الداء يستعجل الأجل". وظلّ على هذه الحال مدّة خمسين يومًا. وقد ساهَرَتَه شقيقته روزا، ومَن معها في المنزل، مساء الأحد في الثاني من تمّوز سنة ١٩٢٢ "حتّى آنَ موعد المنام"، فانصرف كلٌّ "إلى مضجعه" مطمئنًّا. ويبدو أنّه استفاق من نومه قُبَيْل فجر اليوم التالي، ونهض قاصدًا غرفة مدبّرة المنزل يريد منها حاجة، ولم يشأ أن يستعمل "الجرس الكهربائيّ الذي إلى جنب سريره (كما يفعل عادة في النهار) حتّى لا يستيقظ أحد ولا ينزعج بسببه". لكنّه خارَ وسقط أرضًا، وسرعان ما لفظَ الروح، ولم تُجْدِه في شيء لا "الإسعافات الطبيّة حسب

تعليمات الطبيب"، ولا مسارعة الأخير إلى إسعافه، لأنّ جسده غدا "منذ وقع بلا روح"[٣]. وهكذا بارح الدنيا، على ما وصفته شقيقته روزا، قانعًا "من الملذّات بأقلّها"، طامعًا "من المآثر بأجلّها"، آملًا "من الحياة بأمجدها وأنفعها"، راجيًا "من الدنيا سلام العالَم، وريادة الأمم، وطهارة الاجتماع من الفساد"[٤].

تُنُوقِلَ نبأ وفاته على نطاق واسع، ونَعَتْهُ الصحف والمجلّات في مصر وخارجها، وتقاطرت التلغرافات ورسائل التعزية من الأقطار. وفي اليوم التالي شُيِّعَ، من دارته في شبرا، في مأتم مهيب شارك فيه الكثير من أعلام الفكر والثقافة والأدب والشعر والسياسة في مصر. وقد سبقَتْ جنازةُ "المرحوم النابغة عبد الحليم المصريّ شاعر جلالة الملك" جنازتَه بعدّة "دقائق في طريق واحد"[٥]. وقد أبّنه الأديب الخطّاط الشهير "نجيب بك هواويني بقصيدة مؤثّرة [...]، ثمّ تلاه صديقه الحميم [...] محمّد بك لطفي جمعه المحامي، فأبّنه مرتجِلًا تأبينًا ضافيًا أتى فيه على تاريخ حياته وجهاده الوطنيّ"[٦]. ومساء التاسع والعشرين من تشرين الأوّل ١٩٢٢ أقام له النادي الحمصيّ في البرازيل حفل تأبين شارك فيه العديد من أهل الرأي وحَمَلَة الأقلام في تلك البلاد، وكان الدكتور خليل سعاده– صديقه الحميم– من أبرز الخطباء فيه، وقد أبّنه بخطبة وافية "تُعتَبَر من أصدق وأدقّ ما ظهر عن الفقيد"[٧]. كما أُقيم له حفل تأبينيّ آخر في القاهرة أواخر شهر نيسان عام ١٩٢٣[٨]. وبعد انقضاء "سنة واحدة على وفاته"، سكتت الأندية والدوريّات عن إحياء ذكراه، فتسبَّب ذلك باستياءٍ شديد لدى قادريه ومريديه، فتنادوا لإقامة حفل تكريميّ لهذه المناسبة. لكنّ الحكومة المصريّة يومئذ خشيتْ من ذلك، وتلكّأت في

---

١ حدّاد، روز أنطون، "خَطْبُنا الجَلَل: فراق الشقيق العزيز فرح أنطون" في مجلّة السيّدات، الجزء التاسع، تمّوز، السنة الثالثة، ١٩٢٢، ص ٥٥٩.

٢ جحا، مشال (تقديم)، "فرح أنطون (١٨٧٤– ١٩٢٢)" في **المناظرة الدينيّة بين الشيخ محمّد عبده وفرح أنطون**، الطبعة الثانية، بيروت، دار بيسان، ٢٠١٤، ص ٢٢.

٣حدّاد، روز أنطون، "خَطْبُنا الجَلَل: فراق الشقيق العزيز فرح أنطون" في مجلّة السيّدات، الجزء التاسع، تمّوز، السنة الثالثة، ١٩٢٢، ص ٥٥٩–٥٦٠.

٤ حدّاد، روز أنطون، "لوعة الفراق: وداع الأخ الراحل" في المرجع نفسه، ص ٥٦٢.

٥ الحدّاد، نقولا، "عزيزي فرح، كلمة قبل الوداع [قصيدة شعر عموديّ في رثائه]" في مجلّة السيّدات، الجزء التاسع، تمّوز، ١٩٢٢، ص ٥٦٥، حاشية رقم ١. والقصيدة منشورة بأكملها على الصفحات ٥٦٣– ٥٦٥ من عدد المجلّة نفسه. وحول جنازة الشاعر عبد الحليم المصريّ تُراجَع أيضًا الصفحة ٥٧٦ من العدد ذاته.

٦ الحدّاد، نقولا، "ترجمة الفقيد فرح أنطون صاحب الجامعة" في مجلّة السيّدات، الجزء التاسع، تمّوز١٩٢٢، ص ٥٧٤.

٧ إسماعيل، حيدر حاج، **المجتمع والدين والاشتراكيّة، فرح أنطون**، بيروت، [د.ن.]، ١٩٧٢، ص ٩. ونشير إلى أنّ مؤلّف هذا الكتاب قد نشر الخطبة بأكملها، باستثناء ما ذكره الخطيب خليل سعاده عن الشيخ إبراهيم اليازجي في خطبته تلك، نقلًا عن مجلّة السيّدات والرجال، ملحق السنة الرابعة، ١٩٢٣، ص ٤٨– ٥٥؛ على الصفحات ١٠– ٢٠ من كتابه.

٨ جحا، ميشال، "فرح أنطون (١٨٧٤– ١٩٢٢)" في **المناظرة الدينيّة بين الشيخ محمّد عبده وفرح أنطون**، مرجع سابق، ص ٢٢.

إعطاء الترخيص، لكنّها عادت وسمحت بإقامته بعد ضغوط أهل الفضل ورجالات الأدب والعلم. وأُقيم الحفل في الجامعة الأميركيّة في القاهرة، وتوالى على الكلام فيه عدد من الخطباء مشيدين بفضل صاحب الذكرى على النهضة العربيّة، ومثنين على وطنيّته الصادقة، ونزعته الإنسانيّة السامية[١].

خاتمة

لعلّ خير ما تُختتَم به سيرة فرح أنطون هو إيراد شهادة عَلَمَين بارزَين من معاصريه تختصران شهامته، ونبله، وغرضه في الحياة. الشهادة الأولى هي لِمَيّ زياده التي عرفته وخَبِرَتْه عن قرب، وقد قالت في رثائه، في جملة ما قالته: "ما أظنّني اجتمعْتُ بفرح أفندي أكثر من عشر مرّات. لكنّه تركَ كلّ مرّة من مجلسه أثرَين اثنيَن: أحدهما تهيّبه أمام الصائب والقيّم مِن آراء الآخرِين ولو خالفَت رأيه. والآخر اندفاعه في تأييد ما هو على يقين من صلاحيّته. وهناك أثر آخر عميق كئيب كان ينطق من صوته ونظره وسكونه، حتى ومِن ابتسامه، حتّى ومِن تحمّسه، وهو اقتناعه الصميم بأنّه لن "يتدَوْزَن" ومحيطه وأنّ محيطه لن "يتدَوْزَن" وإيّاه"[٢]. والشهادة الثانية هي

لسلامه موسى، وقد قال فيه بعد رحيله: "وقد كان ذا ضمير لا يتاجِر [...]. وأذكر أنّي جالَسْته مرّة بُعَيْد مجيء جورج أبيض من أوروبّا وهو في حاجة إلى دراسات تَروج، وتجذب إليه الجمهور. فذكرنا دراسة "الإيمان" من حيث الرواج بين مُحبّي التمثيل لوفرة ما فيها من المناظر المؤنِّقة، فوافقني على أنّها تروج خصوصًا بين العامّة. ولكنّ العِبرة الأدبيّة التي يستخلصها منها مشاهدوها لم تكن ممّا يرغب فيه أديب مستنير في زمن كالزمن الذي نعيش فيه. ولذا لم يوافق على تعريبها". ويضيف موسى إلى ذلك قوله: "ومن نَكِدِ الدنيا وجنون القدر أن يعيش فرح أنطون ويموت ولم يترك عقارًا، ولم يعرف معنى الثراء، مع انّه كان سَرِيَّ النفس أرستقراطيّ الذهن، بينما غيره ممّن يُترجِم لنا القصص البوليسيّة وروايات الفسق والفجور يثري، ويعيش موفور المال، هنيء البال"[٣].

١ خوري، هنري، **فرح أنطون وفكره الاجتماعيّ**، مرجع سابق، ص ١٩– ٢٠.

٢ زيادة، مي، مجلّة السيّدات والرجال، ملحق السنة الرابعة، ١٩٢٣، ص ١١٥– ١١٦.

٣.موسى، سلامه، مجلّة السيّدات، مصر، تمّوز، ١٩٢٢، ص ٥٧٤.

ملحق

بين فرح أنطون (١٨٧٤– ١٩٢٢) وشارل مالك (١٩٠٦– ١٩٨٧)

صلة نسب وتقاطع مسار[١]

ينتمي فرح أنطون إلى أسرة أرثوذكسيّة طرابلسيّة ميسورة الحال، يسودها التضامن والتآلف، وتتألّف من خمسة أولاد: ابنين هما فرح (١٨٧٤– ١٩٢٢)، ومخائيل (١٨٧٨– ١٨٩٩)، وثلاث بنات هنّ: مريانا، ورمزا، وروزا (١٨٨٢– ١٩٥٥). والده الياس أنطون، ووالدته كريمة اليازجي. شقيقه مخائيل هو أصغر منه، وتوفّيَ في الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٨٩٩ عن واحدٍ وعشرين عامًا[٢]. أمّا شقيقته روزا فهي الصغرى، ويبدو أنّها كانت أكثر أفراد العائلة قربًا منه. مريانا تزوّجت أسعد كرم، وأنجبت منه ستّة أولاد: فيكتوريا وظريفة وهيلانة وميخائيل وسلامة وموريس. ميخائيل ساعد خاله فرح في إصدار الجامعة مدّة سنتَين. وظريفة تزوّجت د. حبيب خليل مالك، وأنجبت منه ستّة أولاد: ليندا (١٩٠٤– ١٩٩٥)، وشارل (١٩٠٦– ١٩٨٧)، وميليا (١٩١٠– ١٩٧٦)، وجبرائيل (١٩١٤– ١٩٩٠)، ورمزي (١٩١٦– ٢٠٠٣)، وبهيج (١٩٢٠– ٢٠٠٢). وهكذا فإنّ فرح أنطون هو خال ظريفة كرم، والدة شارل مالك. وتروي السيّدة سهى خير نصرالله عن جدّتها ظريفة (والدة شارل مالك) أنّ فرحًا زار طرابلس. وخلال زيارته، قصد بطرّام في أحد الأيّام ليزور ظريفة ابنة شقيقته مريانا، وكان شارل ابنها في نحو الثالثة عشرة من عمره، فتحدّث إليه وأعُجب بذكائه، وتوقّع له مستقبلًا باهرًا، وأوصى عائلة الفتى شارل بوجوب العناية بتنشئته عناية خاصّة، لأنّه سيكون من المرموقِين. ونتيجة تقصّينا في سيرة فرح تبيّن لنا أنّ زيارته لطرابلس حصلت بالفعل في العام ١٩١٩، وزار خلالها لبنان وسوريا، وكان غرضه منها استطلاع إمكانيّات العمل في المسرح في هذه البلاد. وهذا يؤكّد الرواية الشفهيّة المتداولة في عائلة شارل مالك عن اللقاء بين شارل وفرح خال والدته ظريفة[٣].

وتتردّد في عائلة شارل مالك أصداء كثيرة عن تأثيرات لفرح على شارل. ومن أخصّها ما تذكره السيّدة سهى خير نصرالله عن خالها شارل، وما يؤكّده الدكتور حبيب مالك عن والده، من أنّه كان شديد الحرص على أوراقه، وكتاباته، غير المنشورة. وكان يُردِّد أنّه يخشى عليها من أن يحلّ بها ما حلّ بكتابات فرح غير المنشورة التي خلّفها الأخير بعد غيابه. ولعلّ هذا من جملة الدوافع التي حدَتْ بشارل

---

[١]. نشير إلى أنّ مصدر المعلومات الواردة في هذا الملحق عن أصول فرح أنطون العائليّة هو أ. طوني نصرالله، وقد استقى قسطًا منها من والدته سهى خير، التي استقتها بدورها عن جدّتها ظريفة، ابنة مريانا شقيقة فرح. أمّا القسم الآخر فقد حصل عليه من أرشيف الدكتور شارل مالك. ولقد وضع الأستاذ نصرالله بتصرّفنا عددًا من المراسلات التي تمّ تبادلها بين أفراد من آل أنطون، في تواريخ لاحقة، منهم الياس أنطون ابن عمّ فرح، وشقيقة فرح روزا أنطون الحدّاد، وزوجها نقولا الحدّاد، وابنهما فؤاد حدّاد؛ وبين الدكتور مالك. وتاريخ هذه المراسلات يتراوح بين الخامس من تمّوز ١٩٤٧، والحادي والثلاثين من تشرين الأوّل ١٩٥٥. والأستاذ نصرالله يعمل على أرشيف الدكتور مالك الذي أصبح قسم كبير منه بحوزة "مؤسّسة الفكر اللبنانيّ" في جامعة سيّدة اللويزة، بناء على عقد اتّفاق أُبرِم بين نجل الدكتور مالك، الدكتور حبيب، من ناحية، وبين جامعة سيّدة اللويزة من ناحية ثانية. وقد زار صيف العام ٢٠١٧ مكتبة الكونغرس حيث كان مالك قد أودع جزءًا كبيرًا من محفوظاته، واطّلع على بعض محتويات ما بقي منها هناك. فللأستاذ نصرالله، الزميل في "مؤسّسة الفكر اللبنانيّ" في جامعة سيّدة اللويزة، والصديق، عميق الشكر والامتنان على بادرته الطيّبة هذه.

[٢]. تُراجَع مقالة "مصاب الجامعة" في باب "تاريخ الأسبوعَين" من مجلّة الجامعة، السنة الأولى، القسم الثاني، ١٨٩٩– ١٩٠٠، الجزء ١٩، الإسكندريّة، ١٥ كانون الأوّل ١٩٠٠، ص ٤٥٣– ٤٥٦. يُراجَع أيضًا الباب نفسه من المجلّة، الجزء ٢٠، ١ كانون الثاني ١٩٠٠، ص ٤٧٩.

[٣]. المناصرة، حسين، **فرح أنطون روائيًّا ومسرحيًّا**، الطبعة الأولى، عمّان، دار الكرمل، ١٩٩٤، ص ٤٠.

لإيداع محفوظاته في مكتبة الكونغرس الأميركيّ في النصف الثاني من سبعينيّات القرن الماضي، خلال فترة الحرب اللبنانيّة المشؤومة، وذلك حرصًا منه على سلامتها، وخشيته عليها من الضياع.

وفضلًا عن ذلك فثمّة تشابه كبير في شخصيّة الرجلين. ونكتفي بالإشارة، في هذا المجال، إلى الشخصيّة الحاسمة وغير المساوِمة لدى كلٍّ منهما. وقد أتينا على ذكر هذه الناحية، بشيء من الإسهاب، في تناولنا سيرة فرح، من رفضه المساومة على قناعاته، وثباته على موافقه، وما كانت تتسبَّب به كتاباته من إغلاق لعدد من الصحف التي كان يُحرِّر فيها. وحول شخصيّة مالك ومواقفه القاطعة، ورفضه المساوَمة، نكتفي هنا بما يردّده كلّ مَن التقاه أو عرفه من ثباته على قناعاته الراسخة. وخير مثال على ذلك نذكر مواقفه في اللجنة التي كُلِّفت وَضْعَ الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان، والتي كان مالك من أبرز أعضائها الفاعلين، والذي أصدرته الأمم المتّحدة في العاشر من كانون الأوّل عام ١٩٤٨.

وحديثنا عن الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان يقودنا إلى التذكير باهتمام فرح المبكِر بحقوق الإنسان، وأهميّة بثّها، والتدريب عليها في الممارسة اليوميّة[١]. وغنيّ عن البيان ما كان لشارل مالك من دور رائد وفعّال في وضع الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان.

أضِفْ إلى ذلك تنبّه فرح، بُعيَد وصوله إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، لِمَا بدأت تمثّله هذه البلاد على الصعيد العالميّ، ولِمَا تتمتّع به المدنيّة الأميركيّة من خصائص، على الصعيد الإنسانيّ، عزّ نظيرها. وقد أعربَ عن تأسّفه لعدم اكتراث المدارس الوطنيّة في لبنان بتعليم اللغة الإنكليزيّة، ولفتَ نظرها إلى وجوب الاهتمام بتعليمها، نظرًا لأهميّتها البالغة على الصعيد العالميّ[٢]. وهذا يُعتَبَر موقفًا استباقيًّا ورائدًا لمفكّر لبنانيّ نهضويّ في تلك الحقبة الزمنيّة استطاع أن يحدس ما سيكون من شأن كبير للإنكليزيّة في المستقبل القريب في هذه البلاد. أمّا شارل مالك فقد كان من أوّل المتنبّهين، في هذا الشرق، لانتقال مركزيّة القرار في السياسة العالميّة، بُعيّد الحرب العالميّة الثانية، إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، وما سيترتّب على ذلك من تغيير جذريّ على المستوى العالميّ بأسره.

ولعلّ خير ما نختتم به هذا الملحق ترويسة أخرى هامّة في مسار فرح الفكري تقتضي الإشارة إليها هنا، وهي تلك المتعلّقة بإعجابه الكبير بالفيلسوف الألمانيّ فريدريك نيتشه على الرغم من معارضته لطروحات الأخير في الصميم. ويظهر ذلك جليًّا في ما نشره عنه في الجامعة ابتداءً من سنتها الخامسة، وشروعه في ترجمة كتاب **هكذا تكلّم زرادشت**[٣]. وهذا الإعجاب بنيتشه، والتحفّظ على الكثير من

---

[١]. تُراجَع مقالته في الجامعة، السنة الثالثة، ١٩٠١– ١٩٠٢، ص ٢٥٠– ٢٥٥، وعنوانها: حقوق الإنسان لا يجوز أن يدوسها إنسان، ووجوب أن يبثّ المعلّمون والأساتذة روحها في نفوس تلامذتهم. وهي تتضمّن، فضلًا عن ترجمة إعلان حقوق الإنسان بموادّه السبع عشرة إلى العربيّة الذي وضعته الثورة الفرنسيّة، مقدّمة تمهيديّة في حوالي الصفحتين، وخاتمة صغيرة في أقلّ من صفحة. وترجمة فرح لموادّ شرعة الثورة الفرنسيّة لحقوق الإنسان السبع عشرة تَرِد مرّة أخرى لديه في ترجمته رواية **فريسة الأسد**، مجلّة الجامعة، السنة الثالثة، ١٩٠١– ١٩٠٢، ص ٤٩– ٥١ (الصفحة الأولى من ترتيب هذه الصفحات من رواية **فريسة الأسد** في عدد الجامعة المشار إليه تأتي مباشرة بعد الصفحة ٦٩٤).

[٢]. للمزيد تُراجَع بعض مقالاته التي كتبها في مجلّة الجامعة أثناء إقامته في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وتناول فيها المدنيّة الأميركيّة، ومنها: "مشاهدات في أميركا، درس في المدنيّة الأميركيّة مبنيّ على المشاهَدة العيانيّة": السنة الخامسة، ١٩٠٦– ١٩٠٧، ص ٢٠٨– ٢١٢، ٢٥٧– ٢٦٩، ٣١٣– ٣١٧؛ "كلام ابن الشرق في الغرب، وهو كلام مَن سمع ورأى": السنة السادسة، ١٩٠٨، ٦٤– ٦٩، ص ١٠٥– ١١٢، ١٤٩– ١٥٥؛ "أسباب عظمة أميركا وما يجب أن نستفيده منها": السنة السابعة، ١٩٠٩، ص ٥– ١٩.

[٣]. للمزيد، تُراجَع كتاباته التالية في الجامعة: مختارات من فلسفة نيتشه [...] للدلالة على مذهبه، السنة ٥، ص ١٧٣– ١٧٤؛ الفيلسوف نيتشه وفلسفته، فيلسوف لا يعرف اسمه قرّاء اللغة العربيّة ولكنّهم رأوا آثار مبادئه وفلسفته في كلّ شيء حولهم في كلّ مكان، السنة ٦، ١٩٠٨، ص ١٦– ١٧، ٥٧– ٦٤، ٨١– ٨٦، ١٢٥– ١٢٨)؛ عَودٌ إلى فلسفة نيتشه، السنة السابعة، ١٩٠٩، ص ٤٢– ٤٣؛ زاراتوسترا وهو أبلغ كتب الفيلسوف نيتشه وأجملها [وهو ترجمة الفصول الأولى من كتاب هكذا تكلّم زرادشت، السنة ٧، ١٩٠٩، ص ٤٣– ٤٦، ١٠١– ١٠٥).

مبادئه لدى فرح، نرى ما يماثله لدى شارل مالك. وقد ورد موقف مالك من الفيلسوف الألمانيّ في حوار جرى بينه وبين الفيلسوف الكَنَديّ جورج غرانت (١٩١٨– ١٩٨٨). وقد بثّت الحوار– وهو بمثابة نقاش حول محاضرة قدّمها الأخير– المؤسَّسة الكنديّة للإرسال عام ١٩٦٩. وَرَدَ على لسان مالك، في هذا النقاش، ما ترجمته: "أعتبر نيتشه ثورويًّا هائلًا، ثائرًا ضدّ كلّ ما هو زائف في الكِيان الغربيّ. هو كما هو، ولم يكُنْ بإمكانه أن يكون إلّا كذلك [...] بسبب خلفيّته المسيحيّة التي منها انطلق. فبالتالي أرى نيتشه نبيًّا معكوسًا– ولهذا هو شخص هامّ جدًّا– أكثر منه فيلسوفًا علمانيًّا[١].

[١]. يُشار إلى أنّ محاضرة الفيلسوف الكنديّ جورج غرانت منشورة في كتاب:

Grant, George, ***Time as History***, Toronto, University of Toronto Press, ed. by William Christian, 1995.

والنقاش منشور بأكمله كملحق للكتاب ابتداءً من الصفحة ٧١، والاقتباس أعلاه وارد على الصفحتين ٧١– ٧٢.